

محمد المخزنجي



المعوقات
في الحياة



الطبعة الأولى
1988
حرر الحق الموطأ



الطبعة الأولى: ١٩٨٨
الطبعة الثانية: ١٩٩٠

الغلاف

الرسوم

الأخراج

للغلاف : محمود الهندي

محمد الخزرجي

الموت يضطك



الفران

أخذ الرجل العجوز يدفع العربى الصغيرة أمامه ،
والمرأة المتهاكة تلحق به ، فى يدها ورقة يتحقق فيها
الهواء .

كانا قادمين من جهة عتابر النساء ، فى السكة بين
الأشجار حيث كانت ظلال الغروب الممتدة تكاد أن
تكسو القناء المشجر الحرامى كله ، والسكة ، تتخللها
بعض بقع الشمس الغارية

المتسللة بوهن من بين الجذوع والأغصان . فكانت الكتلة
البيضاء فوق العربى تضيء وتعتم ، وتضيء وتعتم ، تبعاً لوقوع
هذه الكتلة المتحركة فى مساحة الظل أو بفتح الضوء .

لم يكن يُسمع في هذه السكينة المترامية غير أصوات نائم
الغروب وهي تتخلل الأغصان ، وصوت العصافير المختبئة في
الشجر ، وصرير عجلتي العربة الصغيرة ، وحشرجة أنفاس
المرأة المتعبّة والرجل العجوز ، وصوتاهما :

- مدى يا وليه يا كركوبه

- اسم الله عليك يا راجل يا عجوز

- والله نفسي انقطع النهارده . نالت مرة أروح وأجى .

- بيقولوا الحر هو السب .

- مكتوب كذا في الورق ؟

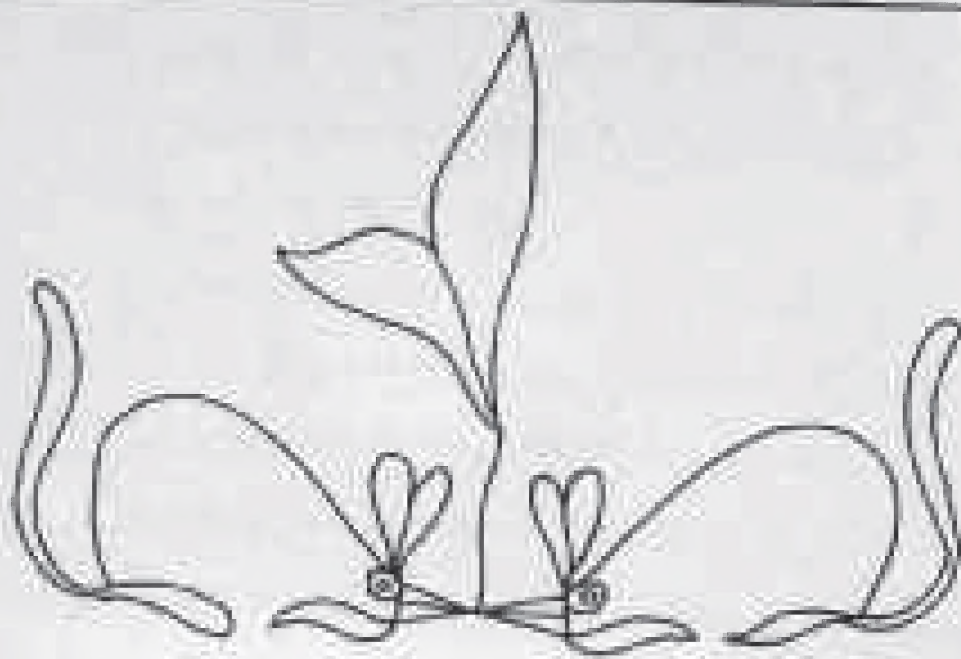
وعصفت هبة هواء ، فارتجفت الورقة أمام وجه المرأة وهي
تحاول القراءة ، وارتفع المسيس فيما كانت الأغصان تتمايل بشدة
وترتعش الأوراق ، وتساقطت من شجر التوت - وهما يمران تحته -
بعض الثمار البيضاء ، والحمراء القرمزية ، ففرشت الملائة التي
تغطي سطح العربة .

- استنى لما تشيله يا راجل .

- التوت الأبيض حلو - كلى منه .

- والله مالي نفس .

توقف الرجل عن دفع العربة ، فاستقرت في وضع أفقى
مرتكزة على عجلتيها ذات الاطارين السوداوين في الخلف
والقدمين الحديديتين في الأمام . وراحت المرأة لاهة تتقدم
وترفع حبات التوت عن الملائة . ثم ترمى بها بين جدوج
الأشجار على جانبي السكة .



وأستأنفا المسير .

فما كنا بمران تحت شجر البانسيانا ، وقد أزهز فكناه
مظلات بهيجة الحمرة وسط دكنة أشجار الكافور والخزوارين التي
تصنع سياجا أمام نوافذ عنابر الرجال الواردين حديثا ، كانت
وجوه الرجال والأيادي المضطربة تظهر من وراء القضبان التي
تصفح النوافذ ، وتتعالى الأصوات في جلبة وثشوش :

- هات شاي .

- شاي يا عم . شاي .

- سجابر وشاي . وشاي يا عم .

كانت زهور البانسيانا الشبهة الكبيرة ، الحمراء توهج ، لا
تكف عن السقوط طوال الوقت ، فتفرش هذا الجزء من السكة
باللون الأحمر ، وتقع فوق العربة فتبدو الملامح البيضاء وكأنها نُقِشت
فجأة بهجة الزهور الحمراء .

ثم اخضت الجلبة عندما اجتاز الرجل والمرأة تلك المسافة تحت
أشجار البانسيان ، ، وعاد صوتهما إلى الانصاح :

- والله يامتى أنا نفسى فى كناية شامى من الصبح

- وأنا نفسى مسدودة من ساعتها .

- دا يعنى صعبانه عليكى قوى .

- عشرين سنة معاشرها .

توقف الرجل عن دفع العربى ، وشوقته المرأة وراءه ، إذ

قابلتها سرب من النساء القدامى حاملات صُور القش - من ورق

الشجر المساقط والعشب الجاف - فوق رؤوسهن .

كانت الصُور كبيرة صنعت من البطاطين القديمة ، يحملها إلى

« القرن » ، وتقودهن واحدة من التربلات القدامى المتحبات

قليلاً . تفيض الصُور فسوق رؤوسهن فتخفى وجوههن

والعيون ، وهن يتحركن مهرولات ، يتؤن بحملهن ، ولا

يبصرن إلا مواطىء الأقدام .

اقتربن من العربى فأحدثن جلبة صغيرة من الهمهمات ،

وتدنون كدجانات فزعات اضطربين اضطراباً خفيفاً . لكنهن

أفسحن الطريق عندما دفعتهن قائدتهن ، الدائغة التلفت ،

بضربات عصا صغيرة خفيفة نحو جدوع الأشجار .

ومرت العربى لهما رحن يتألفن المسير . مهرولات فى صمت

وعت ، تقودهن المثلقة أبداً . وعاد الرجل والمرأة إلى حديثهما

وهما يتقدمان . .

- عشرين سنة ٩ ياه . لازم أهلها ما كانوا عايزينها .

- سمعت ان أهلها هم السب .

- لازم ورت . أرضى واللا فلوس .

- بآينه كان حب واللا هو جواز .
 - ضحكك عليها وسابها ؟ واللا انجوز عليها ؟
 كان الرجال القدامى ، الهافنون ، الذين سُمح لهم بالخروج
 إلى القناء ، يظهرُونَ هنا وهناك تحت الأشجار ، هائمين ،
 يهدون بخطوات متحدثين إلى أطرافهم الغامضة .
 كانوا يهيمون بقطعة ، أو بهيولة ، في الجلابيب القصيرة التي تُظهر
 أرسافهم النحيلة وأقدامهم العارية . أذرعهم لا تكاد تهتز في
 جنوبهم بينما رقابهم المنصوبة تميل إلى الأمام والرؤوس مطاطنة .
 جفت أجسامهم ، وشحبت ساكنة الوجوه .
 كانت تفت انتباههم الشيت كتلة البياض المارة في السكة بين
 الأشجار ، فتستدير وجوههم المتوجسة ، يبطء . . . يسكنون
 للحظة ناظرين بعيونهم الخائفة ، ثم يتصرفون إلى عوالمهم التي لا
 تبين لأحد سواهم . وكانت المرأة تجهد نفسها بالتذكر . .

- لا . باين أهلها ما والحقوق واللا هو أهله .
 - لازم كان فقير .
 - يظهر كده : والا هو كان من قلة غير مُنتها .
 - هي آيه ؟
 - وأنا ايش عرفني ؟
 - عشرين سنة معاهما يا وليه ومشي عارفه ؟
 - واحنا مالنا أمر كلهم بييجوا لنا غلابه زي بعضهم . وينا هو
 اللى يعلم بهم
 - قوليلي اسمها آيه وأنا أعرف لك .



- اسمها ليلى .
- فيها ليل كده وفيها كده . قولي اسم ابوها وحدها وأنا أعرف لك .
- وأنا ابش عرفني . احنا بتاديهم باسمهم وخلاص .
- افري في الورقة تلاقيه مكتوب .
- وقرأت المرأة وهما بمضيان ، فيما كان يتمهل الرجل .
- ليلى ، اسمها . . . ليلى ابراهيم يوسف .
- برووه . شوقي ذراعها .
- وأوقف الرجل العربة التي كانت ، أصلاً ، نقالة من نقالات الاسعاف رُكِبَ لها عجولتين .
- واتجهت المرأة الى جانب العربة الأيمن فيما كانت الشمس وهي تميل قبيل الغروب تفرد الظلال فتغمر السكة بالقنامة .
- مدت المرأة يدها وقد سرت ارتعاشة خفيفة في وجهها المعجوز ، وأخرجت ذراعها من تحت الملاء البيضاء ، ذراعاً

شاحية ولحيفة . تأملت لها المرأة بتعاسة وحزن ، وعادت تدفعها
تحت الغطاء ، فيها كان الرجل يبرز رأسه ويستم :
- جابز . . جابز يكون في الشمال .

تحرك الرجل نحو يسار العربة ، وأخرج الذراع اليسرى من
تحت اللبنة ، ولم يجد أية علامة ، فأعاد الذراع إلى مكانها ،
وامتأنا المسير ، بصعوبة ، وسط ركام من ورق الشجر المتساقط
على مدى سجن كثيرة مضت .

كانا قد بلغنا نهاية السكة حيث اختفت الأصوات ، وانقطع
ظهور الأشجار ، بينما كانت الظلال تأتي من بعيد وتغمر المكان
حتى السور الذي كانت تقع في زاوية منه الحجرة المبينة
بالأحجار ، ذات النوافذ العالية الصغيرة ، والباب القديم
الضخم .

توقفا مجهلين أمام الباب ، وأخذوا يتنفسان بعمق ، وبرغبة في
الراحة . وفجأة قطعت المرأة مدعورة وهي تسأل الرجل :
- سامع ؟ فيه صوت جوه .

وضع الرجل يمينه حول أذنه ومال على الباب يتسمع ، ثم
أنزل يده واستوى متهدأ يقول :
- آه . دي القيران . القيران .
- قيران ؟

سأله وهي تنظر إلى الكيان الموارى باللبنة البيضاء ، لا تكاد
تم عنه بينه لقرط ما هو خليل وخاسف في الجمالة القديمة . ثم
استطردت تسأل بحسرة ولم :

- وما يبيهم ؟

- يورء . غلبا فيهم . . سم ومصابيد ولا فيه فابده .

مال الرجل على الباب بعاجه بمفتاح كبير . فانفتح الباب
بصرير صدى . . واندفع جسم رمادى - ككرة صغيرة - خارجا .
ثم احتفى في الخشائش النابتة بكثافة حول الحجرة المهجورة .
صرحت المرأة . حائفة . وراح الرجل يطمئنها :
- ايه ؟ دا فار . فار صغير

كانت المرأة هي التى تدفع العربية هذه المرة فيما كان الرجل
يوجهها من داخل الحجرة وهو يهين . المكان .

كانت الحجرة المعتمة راكدة الهواء . تفوح من أرجائها رائحة
عطنة .

كان هناك دولاب صدىء في الركن وضعت المرأة في أحد
أدراجة شهادة الوفاة . بينما كانت المناصد الرخامية تقوم ومسط
الحجرة ولصق الجدران حيث سحيت الخشبان اللتان لم يأت
لاسلامهما أحد منذ الصباح .

انجم الرجل نحو طرف العربية بينما كانت المرأة تقف عند
الطرف المقابل .

انحنت المرأة تكشف الملاحة عن الرأس لترفع من الكتفين
فظهر الوجه المستطيل الشاحب وانسدل الشعر . ناعما ومرنا
برغم البياض الضارب فيه .

- خلفتها جميلة . وشعرها زى الحورية .

- كانت تنسى ما تنسى شعرها . ولما كان يزيد عليها الدور .

نعمل قيونكتين زى الصغيرين ونطلع عابره نخرج عالباب
العمومي . تقول انه حاي لها . وانه بيحب شعرها بقيونكتين .

- وكان بيحبها صحيح ؟

- ذا ميت من قبل ما تدخل هنا .

- موثة ريتا ؟

- يقولو الظاهر انه انقل .

- اهلها قتلوه ؟

- تقريبا كذا واللا هو اهلها .

- ارفعى كويس من تحت الباط .

كان الرجل يرفع من عند القدمين ، والمرأة من تحت
الابطال ، نحو المتصلة الرخامية في وسط الخجرة ، والملاءة
البضاء تحسر - منزلة - عن الجسد الشاحب .

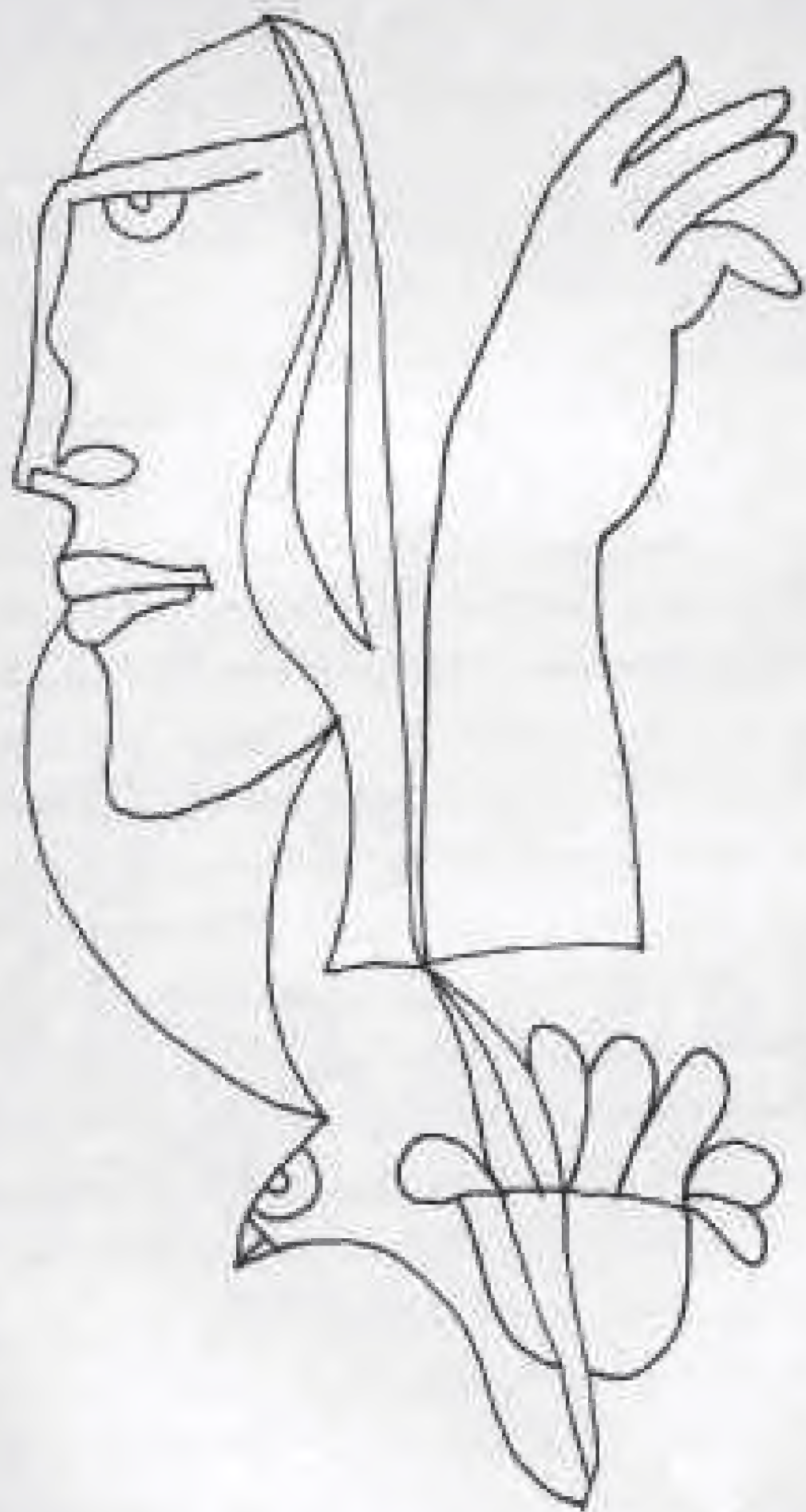
قالت المرأة لاهة وهي ترفع :

- بقى تغطيها قبل ما تخرج لاجل سانهما ما تطولهاش

ورد الرجل مُقطع الانداس :

- ياما عطينا وما بينفعش .

كانا عجوزين ، ضعيفين ، ما كادا يسحيان الجسد على
المتصلة الرخامية حتى وقفا يلهثان تعباً ، تتردد أنفاسهما بحفيف
وحشرجة واهنة تغطي عليها أصوات الفئران التي كانت
تتحرك ، مختفية في الفجوات ، والشقوق ، وظلمة الأركان .



أمام بوابات القمم



« لازم .. لازم .. قتل زمزم لازم »

هكذا كنا حائرين ، والمسافة بين قول الصغار والفعل يمكن أن
تتراعى بحرا بلا آخر أو تدنو عريض قمحه . والشمس تصعد ..
نفيض وثقلا الدنيا فننبع من كل مكان ، من جوف البيوت
الرمادية ، من أحواش السلام الرطبة المعتمة ، من عبد أركان
الحواري الضليلة ، ومتلافي إذ نحشد في شارع « الكامب »
المنفى إلى شوة الغلال ..

ياأخذنا الشارع ، ياأخذنا ونحن ندرج على أرففه الشراية
مسرعين .. كل يحمل قلة ماء عذبة وطبقا فارغا وكيسا خاليا من
قمائل ، وأملأ في العودة بحصاد وفير من قمح ثم حصادة مند
حين .

كانت العربات تمر بنا مثقلة بأحمالها من زكائب الفصح ،
تستفر التراب حولنا والعذوق أقدامنا ، وهي تسبقنا إلى
البوابات ، حيث نسعى . . نرمت عيوننا امتلاء الزكائب
بشوق ، ونحايلنا الحبات المنصمة الاكتناز ذات الشق الحنون
الغور في تجانس هذه السمرة الدافئة . .

- لو الواحد ياخذ زكية بحالها . . يعطل يبجي هنا تاني
- دا الزكية الواحدة فيها قصح يكفى منه . . أكثر من منه
- كام يوم ولا ملبت نص طبق حتى
- زمزم هي السب
- أه زمزم . . هي السب

كنا نتجمع هناك حيث يصب شارع الكامب ، أمام البوابات
المائلة التي تفتح على مساحة الشونة حيث تتوقف العربات لتزول
أحمالها . نصنع قوسا مشوقا إلى الفصح ، ونحن نحتمل قتل الماء
للسقيا . .

ما يكاد واحد من الحمالين أو رجال الملاحظة يعلن عن عطشه
حتى يتفكك في لحظة قوسنا ونحن نجري ونتراحم ، ننداق
مصطخبين وكل منا يعمل قلبه ويعلن عنها بالصياح :

- خذ مني أنا - أنا - لا أنا - أنا يا عم - والنسي أنا - رينا بخلبك
أنا - أنا

وبها صاحب القلة التي تمتد إليها يد العطشان ، إذ بعدها يروى
العطش بمثل ، طبق صاحب القلة بالقصح مما تسيل من خروم

الركاب . تحسد الفائز في كل مرة ونغبطه إلى حين ، لكننا لا نلت حتى نسي ونحن نتراحم ، نتدافع ، ونصطخب متنافسين على القوز بطلق القمح من جديد .

لقد دفعنا دفعا من قبل أمهاتنا لعمل هذا الشيء في البداية ، ثم أصبح هذا الأمر لعبة يومية وعملا في آن ، وكان التنافس بنأجج ، وكل منا يتفنن ليفرد قلته بميزة وزواق .

كانت هناك : قلة الولد الأبيض « البريش » - من حارة جنب الجامع ، حمراء بأذنين وقد ألبسها برسا غطاؤها منه فيه . كانت قلة نظيفة ومضحكة كطفل أحر بقية بيضاء . وكانت هناك قلة الولد ذي القصة « الكوكو » - من بيت المأذون ، وقد غطاها بشاش أبيض نظيف ورائحة ماء الورد تتصوع منها . وكانت هناك قلة بنت النجار وبها عود النعناع .

كان التنافس متأججا حتى أن عشرات القليل التي كنا نعليها - لحظة يطلب أحدهم الماء - لم يكن بينها واحدة تشبه غيرها . ولم تكن هناك قلة لا يصيبها الدور ، إذ تملأ الأطباق بالقمح واحدا من وراء واحد ، والقمح نقرغه من الأطباق في الأكياس القماش التي نحمل ، وما تكاد الشمس تتوسط السماء ملتبهة والنقل تدوسه الأقدام حتى نرغب في العودة فأنعين بما حصدنا - وهو كثير ، وتكون القليل خفيفة فرغ ماؤها بينما ثقلت عل أكتافنا الأكياس . كان الأمر هكذا ، ثم اكتشفنا ببطء أننا نعود بالقليل ثقيلة بينما تخف فوق أكتافنا الأكياس .

ثم لم تعد أطباقنا تستقبل حبة قمح واحدة ، ونحن في هذا اليوم
كنا جائعين . .

- زمزم هي البب
- يشربوا من قلنتها لوحدها
- نقولشي فيها مية سلسيل

أدركنا أن أحدهم ما يكاد يعلن عن عطشه ونحن نتدافع حتى
تظهر ، تفاجئنا دائماً بظهورها ، وهي التي كانت - منذ قريب -
واحدة منا ، صغيرة مثلنا ، ومثلنا تتدافع وتعل قلنتها وتعلن عنها
بالصياح .

أصبحت تفاجئنا بظهورها من وراء . . تتقدم بغير سرعة ولا
تكبد حتى أن ترفع قلنتها مثلنا ، في مشيتها شيء غامض لا
نعرف كنهه ، ثم أنها تأخذ في إكتساحنا . .

نشق نواحيها كسكين حادة تقطع في جبين هش ، تعبرنا ولداً وراء
ولداً ، ويتأ من بعد أخرى ، ولا يشربون إلا من قلنتها ثم
يكلّمونها بكلام ونحن في دهشة ، وطبقها بمنزل القمح مرة بعد
مرة ، ونعود بقللنا ثقيلة في كل يوم ، وفي كل يوم نعود بالأكياس
خفيفة أو فارغة .

- يارب تموت حالا زمزم
- تموتها أحسن
- أه نقتلها

وكنا نضاغط في قوسا المشوق أمام البوابات حيث القمح ،

نحرب حفظنا من جديد وقد أبدلنا الحق بالتمنى . . أعلنوا عن
عطشهم ، فجرينا ، تراحمنا ، تدافعنا إليهم ونحن نعل القل
مدللين عليها بالصباح كما اعتدنا ، بل كنا نزيد :

- أنا يا عم - قلتي فيها مئة ورد يا عم - قلتي بنعناع - قلتي ربي
القل - قلتي ليها برنس يا عم - أنا . . لكنها جاءت من وراء
غهورنا ، فأخفضنا أصواتنا والقل التي أعليناها ، شقت تراحمنا
بسر وتقدمت الى الرجل العطشان . . سقته حتى ارتوى ،
وامتلا طبقها بالقمح ، وعاد بمنلى ، ولم يكف عن الامتلاء !
كانت تكتسنا .

نعود في الظهيرة ، والشمس الحامية ، والأرض الملهبة تلسع
أقدامنا . . ثقيلة هي القل ، والغيط يخرج في داخلنا بالحسد
والخيرة . . ما الذى تتميز به قلنا عن كل قلنا ، هل لأنها طالت
فليلا أصبحت ظاهرة لهم أكثر منا ، وهى لا تتجشم حتى عناء
الصباح أو التراحم مثلنا . . ؟ !

- لازم نقتلها .

نقتلها ؟ لا تعود الى مفاجئتنا بالظهور ؟ لا تعود الى اكتساحنا ؟
نعود بقلنا خفيفة كما مضى ، وبالأكياس يثقلها القمح ؟

نق . تل . ها . برقت أمامنا الكلمة ، ألقا قاصية ودانية في
الأرض المداكنة تحت الشمس المتهوجة . . تلتمع ، وتغرى
البصر . . تلتمع ، فتعنى البصيرة . ولم يكن هناك شئ يكف
هذا الالتماع المخايل الا صفير الليل .

اذن سنقتل زمزم ، في الظلمة .
واتفقنا .

بالليل

كنا كثيرين حتى أننا ملأنا ببر السلم الرطب الذي نخشى فيه ،
تفرقنا الظلمة ، ونسمع أخفت الأصوات دون أن نرى . .
سنقتل زمزم ، كان هذا ما تجمعنا عليه . . نقتلها بأي شيء ؟
أحضر أحدا عصا غليظة ، وآخر كان يمسك بسكين ، وكنا
جميعا سكيلها بأيدينا ونكتم أنفاسها . كنا خائفين . فقط . أن
نكتشف ، فتعرف ، ونضرب ضربا شديدا هذا كل ما في
الامر . . أما أن تموت زمزم فقد كان هذا حسنا ونحن اعترضناه
ونريد ، لكي تكف عن الظهور من وراءنا وأخذ كل الفمح .
سمعنا صوت أبيها يناديها ، ثم نراى البنا صوعها ، وكنا
نضطرب . ستخرج زمزم اذن . ستب عليها . لا بل نتنظر
حتى تعود . لماذا . بل الآن . كنا نضطرب . انها خارجة
لتنرى لأبيها السجائر . كانت تهب ، ووقع أقدامها على الدرج
القليل يأتى خلال الظلمة والجدران ، ستظهر أمامنا وهي متجهة
إلى باب البيت . قبض الذى معه العصا على عصاته ، ونحس
صاحب السكين نصلها ، وكنا جميعا نرتعش كحيوان واحد
خائف أو مبتد ، لم ندر . ولما لاح شبحها في ساحة الظلمة
أمامنا ، وثبنا . .

وقعا عليها جميعا ، وهي تحاول التملص ، ثم كنا من قمها فلم
نصرخ ، وانتبهنا الى انفسنا فوقها .. كان ارتعاشنا يذوب فيها
يشبه النوم . لقد كانت اباديا تتحول هكذا الى نغمة عليها ،
ورفق او ما يشبه ذلك بها . ثم ازاحتنا . وهي التي اقلت منا قمها
لم تصرخ .. وهي التي لم نعد تكيلها ظلت منطوحة كما طرحناها
على الأرض لم تتحرك . كانت تنفس بعمق . وكنا نبتعد عنها فيما
يشبه حركة طيران بطيئة في حلم غريب . كانت الدنيا تدوم
كالنوار .

الذي كان على ركبته يكتمها اخذ يرجع عنها وهو لا يزال على
ركبته جائيا . والذي ارغم بطوله فوق طولها تدحرج متعبا عنها
كحجر أملس يدفعه الهواء ولا أحد .
وكان صوت السكين وهي تسقط من يد صاحبها مكتوما
كالخزى . والعصا الغليظة كأنما نحت .. وضعت على الأرض
باتناد حتى كاد ألا يصدر عنها صوت . ثم أخذنا نصرق
صامتين . صمتا كالظلمة التي تركناها تسيل .. تسيل ..
أمامنا .. وراءنا .. خلفنا .. حولنا .. وفي كل مكان .
وتحن بكل ذلك ، كنا مأخوذين .

في الصباح التالي

الشمس كانت هي الشمس . البيوت . الأحواش . أركان
الأزقة . كما الأشياء كانت هي هي لم تتغير ، والاحتشاد في شارع

الكاتب يحدث ككل يوم ، لكننا نحن - أصحاب حادثة الليلة
القائمة - وقد شدنا إلى بعضنا البعض حيط غامض به ضعف وبه
قوة . . لم نغرق ، وكنا حريصين ألا نغرق في هذا الصباح . .
تمشى معاً ، تحمل قللنا ذات القليل ، وأطباقنا ذات الأطباق ،
ننحى إلى بوابات الفصح دون أن تبادل كلمة . ونحس بالغتراب
في هذا الاحتشاد . هل كانت قاماتنا قد ضالت فجأة عنها في
الصبح الفائت ، فكنا نخشى لو تبدو هكذا أغراباً عن بقية
العيال . . لقد وقفنا هناك ككل يوم أمام البوابات حول عربات
الفصح ، ونحن نتوقع أن تظهر زمزم فجأة من ورائنا . .

ولقد كنا في شوق إلى ظهورها . . نعم . . شوق وحجل ، وقد كانت
ماكثة لا تزال هناك . .

هناك في تلك الظلمة التي تبيل ، رغم أن الشمس كانت فوقنا
تلهب الرؤوس . . كانت لا تزال هناك منطرحة كما طرحناها . .
وحيث طرحناها . . فيها ليل وفيها شروق . . فيها لين وفيها
شدة . . فيها نزق وفيها اضطراب . . فيها طراوة ، فيها ملاسة ،
فيها راحة ، فيها حلو ، فيها دفء ، وفيها دعوة غامضة إلى عالم
غريب لم نعرفه من قبل .

كنا ندرك هكذا أننا كنا فوقها وكأننا عليها . . كائنات صغيرة
ناهية تتحرك على كيان هائل لم نعرف له رأساً من قدم .

الذي منا فاجأ يديه ذلك التكور اللدن لهذين الشبين فوق
الصدر ، كان لا يزال مُسْتَجِجاً راحته وأصابه في وضع المفاجأة
تلك بين الإمساك والترك .

والذي لامس فيه - دون أن يقصد - تلك السخونة المُنْذاة - كان
يجس بالندي والسخونة على فيه لا يزال - والذي تزلّفت أصابعه
وارتكت - وقد كان بذلك مذهولاً - في حوض من ورد وشوك -
كان مرغف الأصابع لا يزال من عراة الوحز ونعومة الأوراق في
أن -
وظهرت ...

ظهرت تفاجئنا ونحن في شوق إلى المفاجأة - نظرت إلينا نظرة لم
نر مثلها من قبل - ثم عبرتنا وراحت تكتسح الأولاد والبنات
بقائتها إلى الرجال العطاش -
وعندما كان طبقها يمتلئ بالقمح - تبينا أننا لم نعد نحسدها - ولم
نعد عليها حائقين - لقد كنا نبصرها ونصبر رؤوس الأولاد
والبنات من فوق - وشعرنا بخجل من هذه القليل التي كنا
نحمل - ولم نتصايح ولم نزاحم -
فكرنا لو يمكننا أن نغلا طبقها بالقمح - وكنا نرسل الرجال
العطاش ... لو تغدو معهم -



حيث الناس والبيوت



آه يا أخوة ..

آه من عسر الكلام وعصيانه حين يزدحم الطفل بالمعنى وتضيق عليه العبارة ..

تضيق ، فيروح .. يروح يثرىها بيدين قرسمان حيرة في الهواء ،
ونغر يختلج بما يولى ..

يقول الطفل : « كده » ! كده التى تعنى هكذا ، هكذا التى تشير
الى كل ما يزدحم الروح ويضغط .

وانا - الآن - يا أخوة اذ اتكلم عن الأمر مازال بعصيتي
الكلام .. وهاكم يلى تحرك ووجهي يختلج ...

كان هذا الأنين المروع ، المذبوح . . كانت تطلقه أمي عذابا
وهي ممدودة هكذا ، قليلة الجسم نحيفة هكذا . . على السرير
الذي كان هكذا تعبسا بأربعة (عواميد) صدت أساورها
الصفراء النحاس ، ومهتت أو ضاعت عساكر هاماتها الصفراء
النحاس كذلك .

كنت سلحة - من بدنها الذي كان ضاويا ومهانا ، وقهمت
مرارة قبل أوان المرارة : أن الموت ، هذا الطائر الجارح الأسود
الخطاف البشع الذي لا قلب له . . يريد أن يخطف مني أمي التي
كنت أحبها بحجم الدنيا التي كنت أعرفها كلها . . كنت أحبها
وهي تناديني :

« يا بن عيني ، وكنت بالمثل أناديه : « يا بن عيني » .

وكنت أحرق - هكذا - ملوفا بالبكاء وأنا اكنم حيرتي في
نفسي :

كيف . . كيف . . كيف لا تخطف مني « بن عيني » ؟
ماذا كنت أفعل يا أختي ، وقد كنت - هكذا - صغيرا ؟

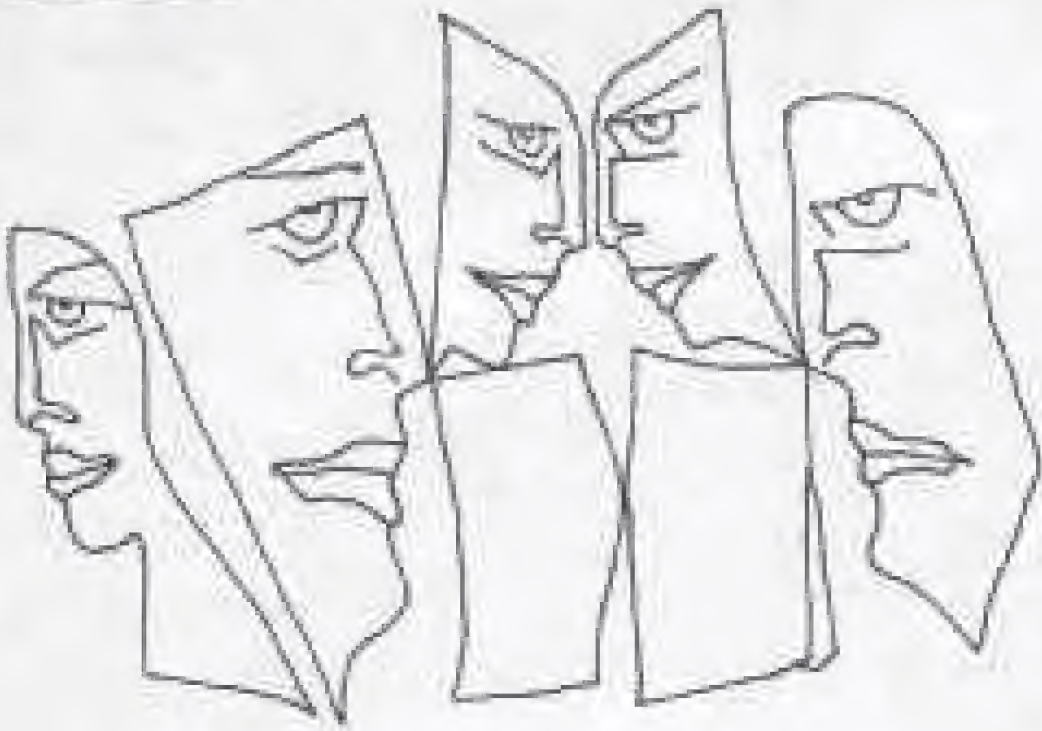
كانت فوق السرير تستجدي بأنيها الموضع شيئا بعيدا بعيدا لم
أكن أبدا أراه يحيى ، وكن حول سريرها وقد لبسن السواد حلقة
كثيرة من نسوة هالكات يبعثن في تراجمهن الأسيان الكامد حوها
بندير قابض ، وقد كنت أرى ديول جلايبهن السواء تظهر تحت
داير السرير المنسج المثقب وتتحرك متهدلة بيضاء . . كنت أرى
هذا التهدل البطيء ، لحرق السواد وأنا قابع تحت سرير « بن

عسى ، مفرقص أبكى بلا صوت حتى لا أكتشف ، فقد كانت
 المدهدة الموشاة بالشفقة يومها تبني وأكرهها ، هكذا
 كرهها ، والنقص يرودة الخائط .. أفكر عندما أعب من
 الكاء .. أفكر لو أني أكف عن أتيان الأفعال الحرام .. لو أني
 أكف ، فربما الرحمن الذي عمل عرش السماء السابعة يقعد
 سامعني ، سامعني ولا يأخذ من عيني ، بذتي .. يسبح عنها
 الداء ، فتعود كما كانت .. حلوة هكذا .. تأخذني معها إلى كل
 مكان ، وتضمني فأحس بطراوة حضنها الودود ، وتهملني ..
 والغنوات تهدهد :

و حماده حدثو
 من الله طلبتو
 طلبتو وأعطاني
 أعطاني حماده

و
 و حماده واقف ع الملاحة
 ماسك في ايده المضاحه
 والبنات وراءه ومباحه

و
 و نام يا نبي عيني نام
 وأنا أجيب لك جور حمام
 غنوات ، و غنوات ،



وغضوات آخر... إلى وإن كنت قد نسيت كلامها ، فإن
لا أنسى إيقاعها المدمت بالتربيت أبدا .
وفكرت هكذا ، وهكذا قررت وأنا أعاهد الرحمن :
- أن أحب كل الطعام ولا أعاف منه شيئا أو عليه أغضب .
- ألا أصيد العصافير ولا أحبسها .
- أن أحل اللقم المثوية التي أجدها في الطريق وأقبلها ثم
أضعها للنمل عند سفوف الحيطان .
- ألا أبحر وراء القطط الجارية ولا أضربها .
- ألا أنلفت أو أشرد في وقفة الصلاة يوم الجمعة .
وكننت أمسح دموعي بعد العهد مع الرحمن ، وأخرج متسللا
من بين أرجل النسوة الضامرات ، وأعبر تحت تهليل الحرق
السوداء ، وكنت رجاء ...

كانت « نين عيني » تئن لا تزال ، أينما أصبح قابضاً للروح ،
وكان رجائي قد خاب رغم أن وفيت ولم أنن ، وكان بكائي
تحت سريرها هذه المرة يحرق بالعذاب أكثر حتى أفلت تشبجي
رغم حرصى - ألا يخرج من صوت يشى بى ، وفكرت أن خيبة
رجائي كانت لكثرة ما ارتكبت من ذنوب - هكذا - لا أعرف
كيف - وطلبت من رب السموات أن يعذبنى - حتى تخلص ذنوبى
كلها ، ولا يجيب لى الرجاء فى أن تخلص « نين عيني » من
عناها .

أخذت النظر أن تعمى عين من عيون ، أو يتخلع ، ولا
يعود ، طرف من أطراق ، وطال انتظارى فقررت أن أعذب
نفسى بنفسى حتى يرضى الرحمن - هكذا - عني . .

هربت زراعى ورحلت أعض ، أعض ساعدى . . أعض
عضاً قابلاً أفسى ما استطعت . . حتى تركت ساعدى دوائر
دوائر . . دوائر مزرقة تحمل الرغوسى الأسنان المغروزة وتبذل
سيل اللعاب وفيض الدموع . .

كانت « نين عيني » قد كفت عن الأنين لأن غيبوبة أدركتها ولم
أكن اسمع منها إلا صوت الانفاس المضطربة العميقة الغور ،
وراء صمت غريب موجه . . تصورت أن فيه - هكذا - يخلق
طائر الموت الذى رأته حداً كبيرة بعيون حمراء ومنقار أسود . .
أسود كبير ومنقوس ، ينتهى بطرف حاد كطرف السكين . . كان
طائر الموت أسود كسواد جلايب النسوة اللاتى جلسن حول
سريرها صامتات خافضات الرؤوس . . وخفت أن يشرعن

فجأة في الصراح ، وكنت خائفاً من طائر الموت أن يفعل -
هكذا - ويكون في الفعل دم إذ كنت أمرك - الآن - أنه طائر مجرم
وغلاب .. وهرعت وأجفت القلب مطاطاً بعد أن مسحت يدي
وجهي محاولاً ألا أترك أقراني من عيال الشارع يكتشفون أن
بحوثي كانت مثله ، وهناك .. هناك .. حيث لم تكن تقوم
البيوت ولا يمشي الناس اتخذت أبداً أقصى ما أستطيع ..

أن أذهب مع من عيني ، حيث بدا غير ممكن أن تظهر هي
معنى ولم أكن قد رأيت شيئاً يثبت نفسه إلا العصافير التي تصاد
والجس ، فتجس أنفاسها ، ولا تأكل حتى تموت .

ورحت مثلها أفعل : أخرج جائبها وأذهب إلى أقاصي
الغيطان .. مخبياً أقدامي على حافة المصرف الثاني .. أبكي ثم
أشرب بعنق حبابا النفس .. أحبس النفس حتى ألوتر فأنلوي
وأنا أكم دفقة الضغط التي تسدع إلى وجهي عبر ضيق
المصدر .. أزهو نادماً أن لم أحصل ، وأشبه مقرر أن أعاد
الكرة .. أعود أحبس النفس وأنادي مكتوما صائر الموت ..
أنادية نداء يكاد يفجرني ويبعثر ..

أنادية أن يأت .. يأت يأت ويلقط بمنقاره روجي التي أحسها
تصعد إلى الخلق ، وأرجوه أرجوه أرجوه أن يفعل هكذا بغير أن
يكون في الفعل دم .. أنادية أنادية أنادية وأرجوه أرجوه أرجوه
أرجوه ولا أستطيع يدي يدي يدي ع ، فأزفر طارداً ما أنكم ،
وأشبه ثم انفجر بكاء مرا .. وأعانده مكرراً المحاولة فأجد
نفسى أعاد ١٩ ..

أحمد - بغير قصد - حامياً إلى رقم ثم استطعت أن أحس
 أنفاسي ! وعندما أرفو لم أشهد أجداً لا أبكى ! - وأعلنت
 اكرو ، وأريد العذ في كل مرة - ثم وجلتني لأمياً ، وانجبه ان
 تسوقني فلهان إلى حيث الناس والبيت - أديع بين أفران أعية
 جديدة ، وأطلب من ينزلني وأنا لم أرب لذلك !

« من يقدر يحس نفسه أكثر مني ؟ »
 « من يقدر يحس نفسه أكثر مني ؟ »

وأصحت بطل هذه اللعبة !
 بطل هذه اللعبة أصبحت ، وأصحت ألونها وأنا ألقها : مرة
 بأن أضع يدي على فمي وأنفي ، ومرة بأن يضع أي من رجال
 الشارع يده على فمي وأنفي حتى يوقوا كوني لا أكذب ، وحتى
 يتأكدوا من كوني - فعلاً - لا أكذب طلت منهم أن يحضروا وعاء
 ممتلئ بماء ... أغطس فيه رأسي ، وليعدوا حتى يتأكدوا أنني
 أحس أنفاسي - بالفعل - طويلاً ، طويلاً قبل أن أخرج رأسي
 من الماء ... كان هذا يتطلب وقتاً حتى يتحقق ، ثم أن تحققه مرة
 لم يكن كافياً للتأكد ، وكان التكرار يتطلب وقتاً آخر ، ثم أنني
 كنت أتعلم ضرورة أن النظر بين الناس والبيوت حتى يحجب
 شعري من الليل ، فليل كان يصبح يا أخوة أن أعود إلى البيت
 مبلاً ... كان هذا لا يصبح - كنت أقول أحس ذلك ، وكان
 للماء الذي أغطس فيه رأسي لذاتة ممتعة ... أعرف الآن -
 يا أخوة - كيف لا يعصني الكلام في التعبير عنها ، وبالذات

لحظة أخرج بوجهي من الماء وأملأ صدري بسائم الدنيا كلها . .
كلها . يا أخوة . قيل أن أكرر اللعبة في أماكن أخرى حيث الناس
والبيوت . لا بد بين الناس والبيوت !

نعم يا أخوة .

المخالفة



فتحت له ، فذكر اسمي ، وذكر اسمه ، وعرفني بفسه :
« شرطي سرى من مذبذبة الأمن » ، فاندشت مضطربا ،
ومكنت مرتبكا للمحطات في حلق الباب دون أن ادعوه للدخول :
« تفضل ، تفضل » ، قلنا رجل مسلم ، لا اذكر انني دخلت
قبلا للبوليس مرة ، واكاد أن أكون غلصا حتى النخاع لكل
حرف في كلمات الحكم العظيمة من مثل : « دع ما لغيرك ،
لقبصر » ، ودع ما لله ، لله » ، وه لا تدخل فيها لا يعنيك
تسمع - عمل الأقل - ما لا يرضيك : « ولولا اني أخاف افزع
طفل الحيين الوديعين واثارة استغراب الآخرين لعلقت في كل
أرجاء البيت والعيادة ومكتبي في المستشفى صورا مكررة للمفرد
الثلاثة القاعدين القرفصاء : يغنى أولهم عينيه ويسد الثاني أذنيه

ويحكم الثالث فمه ، يدعو الى : « لا أرى ، لا أسمع ،
ولا أتكلم » ، اشارة للسلامة . ثم اتى انسان لا أعداء له ، بل
ولا - حتى - اصدقاء ، بالمعنى العميق لكلمتى : العداة ،
والصداقة . وقول المأثور الأثير هو : « أحب حبيك هونا
ما عسى أن يكون بغيبضك يوما ما ، وبغض بغيبضك هونا
ما عسى أن يكون حبيك يوما ما » . لا أغوص أبدا في أى
شئ » . ولا أحب الغوص لأننى اعتقد أن أى غواص مهما احترق
معرض يوما ما للغرق . حتى في عملى ، لا أحب الغوص ،
ولا أومن في جداوله . ولقد أثبت سجل عمل تجاحا باهرا
لتطيقى وجهة النظر التى أبدتها البروفيسر « جا . واليس » في
مرجعها المختصر المفيد والتى أقدمها ، تقول : « بما أن السبب
المتشعب للمرض النفسى - بالضبط ، بالضبط - غير معروف ،
فعليك بالأعراض » ، فقط .

ومع ذلك ، كنت مرعوبا من هذا التيه المفرغ الذى رمان فيه
المخبر الجالس في صالون بيتى ، يشرب الشاي ، وأنا ألح عليه
كنى يقول لى لماذا أنا مطلوب للأمن ؟ وهو ، يهز رأسه اشارة عدم
المعرفة ، ويرتشف الشاي بصوت مرتفع ، أضحك طفلى ، ولم
تضحك له زوجتى التى وقفت شاحبة الى جوارى . . شاحبة ،
خائفة ، ومع ذلك لم تفقد حساسية المرأة . . هذا الذكاء الانثوى
الذى يلتقط بريق الأنامل أدق الحبوط وأهمها في أعقد نسيج
كان ، فبعد أن قدمت اليه « البيبونيرة » ليأخذ واحدة من
اشيكولاته - لأكها في فمه بسرعة - أصرت أن يأخذ المزيد ،

وسحبت : « عندك أولاد » - « خمسة » ، فضربت الخمسة في أربعة ولقت في ثوان قليلة عشرين قطعة من الشيكولاته الكبيرة بالبنديق : « للأولاد » ، فأنشرح وتلملم ، وأطلق من فمه حمامة طمأنيتنا : « لا تقلقى يا هانم ، الدكتور مطلوب لسؤال عن زميل له مقبوض عليه للاشتباه » .

ماذا فعلت يا حسين يا منصورى ؟ ظل السؤال يحاصرني وأنا أرتدى ملابس لا أخرج ، وأنا أهبط سلم بيتي ، وأنا في الطريق الى مديرية الأمن . وحسين المنصوري طيف يطالعني في كل خطوة ، بوجهه المدهوش الذى يشبه وجه صبي ويوحى بوجه شيخ في ذات اللحظة ، يسبح حولي بجسمه الصغير وأراه شاردة رغم قلق العينين المغرورقتين دائما . قلت لك يا حسين يا منصورى مالنا نحن وما للقلق عندما رحت تنبش وتحفر في مواضيع متعبة : مرة عن علاقة الأحياط بالتطرف ، ومرة عن اكتئاب النساء وسفر الرجال ، ومرة عن جنون الأطفال في غياب الأمهات .

وقلت لك ستروح في داهية عندما اثرت قضية « ضرورة أن يكون للطب النفسى رأى في كل المشاكل الاجتماعية وفي الصلاحية النفسية لشخصيات الكبار » . وقلت لك لا تعرض نفسك للمخرج والخطر عندما تلبثك العناد أن تذهب بعيدا في « بحث جوانب موضوع حالات التحول المستيرى المتكررة وسط المنقبات » إذ كن يحنن بالعصى ، والحرس ، والغيوبة ، وفقد الإحساس ، والشلل - المستيرى جميعا . تظل تناقشن طويلا

بعد أن يشقى ، وعن يقاومى . شكلم عن ابن كثير وابن حزم
والألبان ومن لا أعرف اسماءهم ، تقرأ عليهن آيات وتقول
« لا نص في آية الأحزاب ولا في آية النور على صرب الثياب » ،
وتقول : « هناك أحاديث كثيرة أقوت المسفور وتم تطلب من المرافة
لا تغطية عين ولا حين . وارك بعد أن ينصرف من متوترا تروج
وعلى » ، وتردد : احتياز أم النهار ؟ انصباح أم اقضاع . ثم
تلكون وأنا لا شأن لي بذلك : لماذا يخشون العصر الأصغر
والأعت الأعت والأغلظ الأغلظ . تسألني بماذا أفرد تنافس
التركيبية النفسية أهلة للهستيريات مع ما يبدى من قوة في
التعصب . وعندما حاولت أن أكفك بالهدر عن الأيقال قائلا :
« على نفسك ! وجدتك تستسلم بسهولة أدعشتني وانت تقول :
« بأنك كالواقف على حافة الحرف يرى ما وراءه من بسطة الأرض
إن استدار ، ويصير حقيقة الهوة إن أطل على أسفل » فأمسكت
أنا . وظلت تشغلك حالات المنقبات الهستيريات فتغرق في
البحث عما تسميه « سيكلوجية التحفى » . وصرت أضيف
بأسئلتك الحيرى : ما هي سيكلوجية انسان يراقب العالم خلال
ثقبين وهو مخيف ؟ ما هي سيكلوجية انسان يظل يرى العالم من
وراء منظار وهو يعلم أن أحدا لا يراه ؟ ما هي سيكلوجية من
ينظر خلال عين الباب السحرية طوال الوقت وهو عارف أن أحدا
لا يتنبه إليه ؟ وعندما عرفت أنك ابتغيت تطلب اجازة ،
وانقطعت عن المعنى ، وانقطعت عن أخبارك ، منذ شهرين ،
ذهبت الى شقتك الصغيرة ولغت نظرى التماع العين السحرية في

ذِكْرَةَ حَشَبِ النَّبِ ، فَهَلْ كُنْتَ هُنَاكَ طَوَالَ الْوَقْتِ وَأَنَا أَضْرِبُ
الْجُرْسَ وَأَطْرِقُ قَدُونَ عَجِيبٍ ؟ أَمْ مَاذَا ؟ ! وَمَا شَأْنُ أَنَا ؟ !

وَمَا أَتَيْتِ يَا حَسِينَ يَا مَتَصَوِّرِي لَتَضْعَعِي فِي هَذَا الْقَلْقُ
وَالْخُوفِ بِزَيْلِي . ادْخُلِي الْمَبْنَى الرَّهِيْبَ . . . رَدَّهَاتٍ جَهْمَةً
وَعَسَاكِرَ مَتِيوْنَ أَمَامَ الْأَبْوَابِ ، وَخَبْرُونَ بِرُوحُونَ وَيَعِشُونَ
بِسُرْعَةٍ وَمَلَأَعَهُمْ نُوحَى بِالنَّكْتَمِ الْأَصْمِ . وَوَقَفْتُ بِرَعِي مِنْ
عَطَرِ غَامِضٍ ثُمَّ ادْخَلُونَ أَمَامَ رَهْبَةِ السُّلْطَةِ وَبَرِيقِ النُّورِ السُّورِ
وَالنَّجْمِ الْخَفِيفِ ، لَكُنْ جَنَابَهُ دَعَا إِلَى الْإِلَهِ لَوْسَ بِالْعَلْبِ زَائِدِ
وَتَفَضَّلِ يَا دَكْتُورَ ، وَمَسْأَلَتِي عَمَّا أَشْرَبَ ، فَشَكَرْتَهُ ، مُعْجَبًا
بِالنَّشَاءِ ، وَكَذَلِكَ أَهْبَ وَاقِعًا لِنَقِيلِهِ .

قَالَ جَنَابَهُ لِي إِنَّهُمْ قَبِضُوهُ مَتَخَفٍ فِي زِيِ امْرَأَةٍ مَنَقِيَّةٍ يَتَجَوَّلُ فِي
الشَّوَارِعِ بَيْنَ النَّاسِ ، وَقَالَ لِي إِنَّهُمْ هُنْدَمَا قَبَضُوا عَلَيْهِ وَازْأَحَوْا
عَنْ وَجْهِهِ النِّقَابَ كَانَ يَخْفَى وَجْهُهُ بِيَدَيْهِ مَضْطَرِبًا كَهْفَلٍ خَجَلَانٍ
أَوْ كَمَنْ يَبْهَرُهُ النُّورُ بَعْدَ ظُلْمَةٍ ، وَخَلَّ يَخْفَى وَجْهُهُ وَلَمْ يَتَكَلَّمْ .
وَعِنْدَمَا فَتَشَرَا فِي جَيْبِ مَطْلُونِهِ الرَّجَالِي الَّذِي أَبْلَاهُ لَحْتَ الْجِلْبَابِ
النِّسَالِي الضَّاقِي وَجَدُوا بِطَاقَتَهُ وَكَرَّتِي النِّقَابَةَ وَبَطَاقَةَ عَضْوِيَّةِ
جَمْعِيَّةِ « الْعَلْبِ وَالنَّفْسِ » ، وَقَالَ لِي أَنَّهُمْ هُنْدَمَا تَحَوُّرُوا عَنْهُ عَرَفُوا
أَنَّهُ وَحِيدٌ وَلَيْسَ لَهُ أَقَارِبٌ أَوْ أَحْدَقَاءٌ بِالْمَدِينَةِ ، وَيَعْمَلُ مَعِي ،
وَمِنْ ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا غَيْرِي يَعْرِفُهُ . وَقَالَ لِي إِنَّهُمْ أَسْفَنُونَ لِأَزْعَاجِي
وَقَدْ اضْطَرُّوا لِلِاسْتِعَاثَةِ بِنِ لَعْلِهِ يَتَكَلَّمُ ، وَنَهَضَ وَقَادِلِي خِلَالِ
رَدَّهَاتٍ كَانَ يَعْبرُهَا فَيَنْشِجُ كُلَّ شَيْءٍ بِالنَّحْيَةِ الْعَسْكَرِيَّةِ ثُمَّ نَزَلْنَا
دَرَجًا يَفْضِي إِلَى بَدْرُومٍ مَعْتَمٍ وَدِهَالِيزٍ مَقْصَاةٍ بِمَصَابِيحِ كَايِيَّةٍ ،

وحصلت بوابة حديدية تفتح فראيت صفا من الغرف الموصدة
أبوابها السوداء ، وجاء عساكر يحمل أحدهم كشافا يشير في
العتمة ، وفتحوا بابا ودخلوا ودخلت ونادى جنابه بصوت
رهيب : « أظن مستكلم يا حسين يا منصورى » ، وضربوا
بضوء الكشف في الركن ، ولولا أن أخبرت سلفا بأننى ذاهب
إليه لما عرفته ، فقد كان في الركن قاعدا القرقصاء غيبا على نفسه
بيطانية رمادية يطل من شق بين طرفيها . كان واضحا أنهم
يطلبون منى محادثته فأنحيت عليه أناديته : « دكتور حسين
يا دكتور حسين » ، وكنت أزيح عن وجهه أطراف البيطانية
فيعيدنها بشكل آلى ، « حين . . حين » ، لكن وجهه المحايد
الشاحب لم يرد النداء ، ثم إنه السحب داخلًا في مكانه
الرمادى ، وأنا أستوى واقفا ، لا أكرر المحاولة .

ما بال هذا الأنين

لم يكن هذا مجرد نباح ، فقد كان شيئا بشعا عندما فزعنت من
نومي . مرة أخرى بطلت الحلم وطير . اليوم العاشر منذ
خروجي والأحلام تنفلت من نومي وتطير . وقلت : لعله كلب
غريب دخل وسط كلاب المنطقة فتجمعوا عليه ينحون .

لكن ، عندما بدأ الحبط يصل الى الباب ، كنت أدخل في
مشاعر تلك اللحظة . . أدخل في خليط الدهول والحضور
الباهر . . الوميض ، واسراع النبض ، والدوار الذي لا
يكتمل . وقلت : لقد جاءوا الآن ، وكان هذا هو الوقت : بعد
منتصف الليل ، وقبل الفجر .

قلت : لقد دخلوا ، اذ سمعت الباب يفسح . وسمعت
أصوات الأقدام الكثيرة في بئر السلم . وأخذت أصغى وأنا
أقول : سأجدهم فوق رأسي ، وسأشعر بالمرارة والاحباط وأنا
أنهض . . سأرتعش من البرد ومن الشعور باليأس واقتناده
الأمان ، وسأرتبك وأنا أحاول إخفاء ارتعاشي .

عادت الأصوات تخرج من بئر السلم . كان البناح ، البناح ،
البناح ، ثم انني كنت أتين صوتا يشبه صوت انسان مرتاع تحول الى
بكاء . . واستنفذ نفسه فصار أثينا ، وكانت أصوات الكلاب من
حوله تنطق ، صوتا وراء صوت .

قلت : لماذا هموا بالصعود ثم تراجعوا ؟ لا بد أن الكلاب
كانت تستمر بالبناح عندما رأت سياراتهم الساكنة المطفأة الانوار
تسلل . وعندما هبطوا من السيارات كان البناح يشتد ، ولا بد
أنهم - حيث توجد معهم دائما بنادق وهراوات . . راحوا
يضربون الكلاب التي تجمعت عليهم بكعوب البنادق ورؤوس
الهراوات ، ضربا مكتوما لنكف ، فلا استيقظ ، ولا يستيقظ
الناس ، ومن ثم أباغت . لكن ، ما هذا الأنين ؟

أخذت أصغى لليل . لقد انقطع البناح كله أو يكاد .
لا صوت الا ذلك الأنين الغريب . ولم تكن هناك حركة . .
حركة الأقدام التي كان ينبغي أن أسمعها وهي ترط الدرج ،
متابعة متزاخمة ، لأفاجأ بهم فوق رأس . ومكنت أصغى .

قمت أخيرا ، خرجت من سريرى ورحت أعبر باب
الحجرة ، والردهة ، وأفتح باب الشقة ، وأهبط عاري

القدمين . أوقدت نور السلم ، وكان صوت الأنين يتضح شيئا فشيئا كلما هبطت درجة فدرجة . ثم رأيت الكلبيين المذبوحين ! نعم : مذبوحين ، لا أستطيع تعبيراً أقل من ذلك . لقد كان هذا الجزء النازف من جسديهما مضروغا حتى البطن وأعلى الأفخاذ ، وكان دمهما يلطخ الأرض وعتبة الباب والأجزاء السفلى من الحيطان . كانا يثنان وجسدهما في ارتجاف متواصل . ثم انهما التفتا معا الى وجودي ، ولم يتحركا ، بل أخذتا يتطلعان نحوي في ضراعة .

لا بد أن الألم كان يعصف بجسديهما المتصلين ، وكانا مذهولين حتى اللحظة ، وكنت أستطيع الآن أن أغمض عيني وأنخل . . . عندما التقيا في الليل ، وانصفا ، وكانت الكلاب تبج من كل مكان ، فراحا في عجزهما الدليل يندفعان للاحتباء بمداخل البيوت ، وكان بيتنا أقرب ، ومن شدة الحاحهما على النجاة أخذتا يدفعان الباب معا ، فينفخ ويدخلان ، يلحق بهما النباح وتطالهما الأنياب ، ويتم ذبحهما على هذا النحو فترجع عنهما الكلاب الى حين . وقد كنت أبصرها - تلك الكلاب - وهي ما تزال ترصد لها خارج الباب في عتم الليل .

كانا يرتجفان مزيدا ، ويصدران صوتا كالنحيب وهما يسددان الى نظراتهما المتضرعة ، فعلبت مذهولا أحاول أن أساعدهما وقد استكانا لي . ولما كانت يدي تتلمس هذا الجزء من جسديهما ، اقشعر جلدي ، اذ كان اللحم (المفري) المدمم يتساقط بمجرد اللمس ، فتراجعت بظهر مقصوم ، يثقلني صدر مبهظ ،

وتتعدى روح مهددة ، فأتهاوى مقرفضا على أول درجات
السلم .

ما الذى جعلنى أتذكر حشرات عصرى كلها ، وحس
المقهور ، والأحلام التى قدوت ولم تخلف عن الصورة ؟ أشعر
بوطأة الوحشة فى هذا الليل ، وأشمل الملبس حتى يطرئ ،
لرهة ، ثم أحس ، وجهى بين زكى - أحسن للنكاه ، لكن البكاء
يستعصى . ثم أهما راها يتأوهان . بصوت إنسان حالص كانا
يتأوهان ، نأوها أحسن يتحلى وتسلل عبر عظامى إلى التراجع
ويصعد ، فلا أحتمل المزيد .

وأراى فى لحظة ذاهلة كفى أنحطت . الفدف عرجا فى حالة
من صهد يومئذ ، وأهيج من غورى وسطمة الكلاب فى ليل
الشارع الخالى . لا أشعر باضطراب الألياب المدمرة حولي ،
ولا أحس بعقرها ، لكنى استشعر لذة غريبة كهذه ، التى تكسر فى
عشى التقدود المتهاجة تحتى فى ذروة البرودة ، هذا . كلما طالت
قدمى بورا من أبواز الكلاب الرطبة ولطمت ، لطمت . وكان
قدمى حجر .

هذه المزرعة

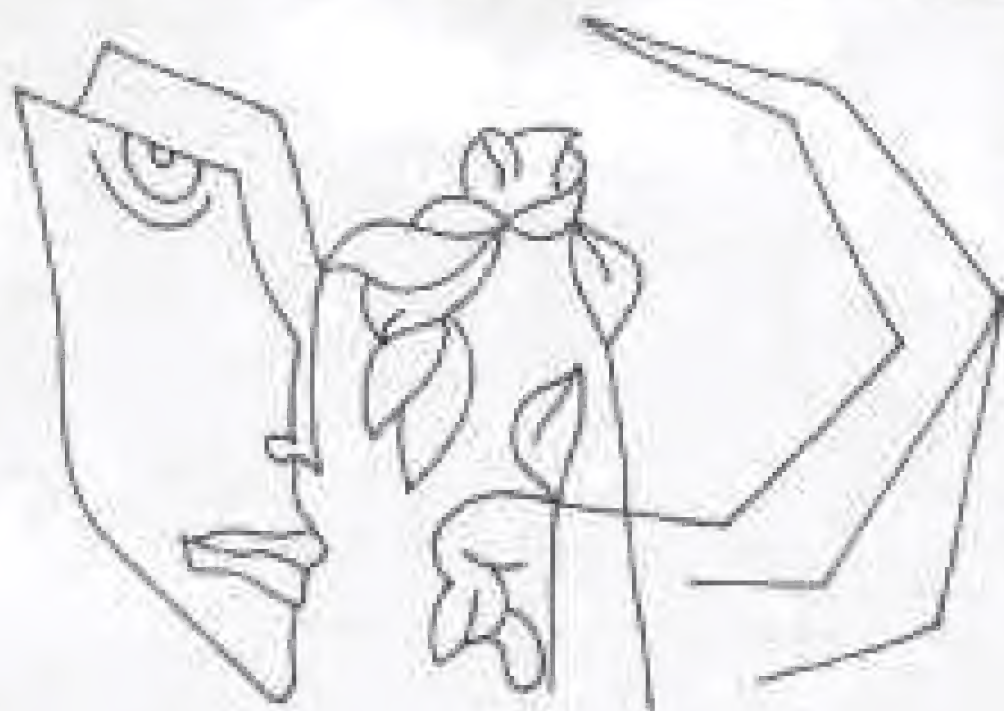
رجحنا - نحن أعضاء لجنة تقصى الحقائق - أننا لن نلصق
شيء ، ولن نعثر على أي أثر لحبوب منع الحمل المطحونة ،
مضافة - كهرمونات للتسمين السريع - إلى غذاء الدجاج المعد
للبيع في هذه المزرعة الكبيرة . فلقد أبدى المالك ترحيباً شديداً
بمهمتنا ، ترحيباً يعكس فرط ثقته بنفسه وبترتيبات مزرعته ،
ويعكس نهكها - يظنه - منا ومن مسعانا . ومع ذلك ، وربما
بسبب ذلك ، إضافة إلى ضرورة التسلية الروتينية لخلقات
المهمة ، شرعنا بملقط عينات مختلفة من ماء الساقى والعليقة
والزرق ، للفحص ، وقررنا أن نتفق بضع دجاجات حية
نحملها معنا للتشريح ولأبحاث المعامل الحيوية ، لعلنا نكتشف
شيئاً ، وإن كنا قد أجمعنا على أرجاء ذلك حتى نهاية الجولة .

في أول مرورتنا بالعنابر المقدلة داهمنا صهد ، ورطوبة مرتفعة .
فدونا نسبتها بأكثر من سبعين في المائة . وكانت المصابيح الكثيفة
المنشرة في السقف وعلى المحيطان تسطع حارة وتنصب على
أكداس من الأقفاص السلكية الحاذية لدجاج من الهجين الأبيض
الكرمي ذي الأعراف البرتقالية القصيرة ، من أنواع النيوكلز
والهوبارد والبلس والهيرو التي يصعب التمييز بينها . ولقت نظرنا
أمران ، أولهما : حشد هذه الأعداد الهائلة من الدجاج في حيز بدا
لنا ضيقا على نحو ما . والثاني : استخدام رجال من الأقزام
المعضلين كمراقبين داخل العنابر ، يتكئون بعضى طويلة تنهى
في ناحية منها برؤوس حراب صغيرة وفي الناحية الأخرى
بخطاطيف مستهتة تشبه مناجل دقيقة للحصاد . ولقد استعربنا حرجا
ولم نجد مناسبة لفاتحة المالك في أمر الأقزام ، لكننا سألناه عن
هذا الجمع الحاشد للدجاج ، فأكد لنا بشهادة رسمية - أعطانا
صورة منها - أنه لم يتجاوز قاتون المزارع : . . اثنا عشر طائرا في
المتر المربع من كل طابق من طوابق الأقفاص وكان كلامه صحيحا
بدلالة مسع سريع أجريناه في أكثر من بقعة ونحن نحضى .

بدأنا تتبع التنسيق الصارم داخل العنابر التي بدت لنا في
أول الأمر - عشوائية التكديس . لقد كانت الأقفاص المصنوعة
من سلك الصلب المجلص تنظم في بطاريات تضم كل منها عددا
من الأقفاص ، تتلاصق في صفوف ، وتصعد هرميا في طوابق .
وإذا تراءى البطاريات ظهرا لظهر ، وجنا لجنب ، ثم تتعاقب ،
يبدو المكان كساحة ترحمها جيوش من الدجاج المنضبط طوابير

طواير داخل صفوف الأقفاس الممتدة بطول العنابر . . كل
 دجاجة في قفص ، وكل الأقفاس محكمة ولا تسمح بأكثر من أن
 تبد الدجاجات رؤسها والرقاب عبر فتحت في واجهات الأقفاس ،
 كالنوافذ الضيقة ، تطل منها فتعد تحت مناقيرها خطوطا دوارة من
 مسلي لا يفرغ مازها ، ومعالف لا تكف عن الامتلاء بفعل سلسلة
 تجري في باطنها فتجر معها الحليقة هذا بينما تغطي تحت
 مؤخرات الأقفاس خطوط أخرى كمجار من الصاج تجمع الزرق
 وتخرج به الى حجرة جانبية من فتحة في الجدار العرسي للعبير ولم
 يكن هناك من دور للأفزام على ما يبدو الا أن يدوروا ويدوروا في
 المسارب بين صفوف الأقفاس ، يتخزون بأستة الخراب كل
 دجاجة يغالبها النوم ، وتخرجون بالخطاطيف - بعد أن يفتحوا
 ابواب الأقفاس بها - تلك الدجاجات التي تنفق ، ويلقونها على
 صير متحرك في الخلفية يغادر العبير حاملا ، ويأتي حاليا عبر فتحة
 في الجدار تجاور فتحة خروج الزرق .

كان الماء في المساقى عادي الرائحة والمظهر باستثناء حمرة
 خفيفة لبرمجنات التطهير المضافة اليه . وكانت الحليقة تبدو
 عادية أيضا وان كان أحد أعضاء لجنا قد أكد بعد أن نشم حقة
 منها وأمعن فيها ، أنها مكونة ، إضافة الى المعتاد من التخلية
 والملح وزيت اليسون الغانح للشهية ، من مسحوق الدم
 المتجمع أثناء الذبح ، ومسحوق لحم وعظام الدجاجات
 النافقة ، وبعض الزرق بعد معالجته . ولم ينكر المالك هذا ، بل
 راح يؤكد على أن ذلك يتم في حدود النسب العلمية ، وقدم لنا



كثبات بالانجليزية تم اعتمادها محليا وبها جداول لتوكيدات
مختلفة من أعلاف الدواجن المحتوية على مخلفات معالجة . ولقد
لفتنا هذا الى حشود الدجاج التي كانت تلتهم من العليقة بما يشبه
شبه خرافية ، فهي لا تنام عبر أسابيع دورة التسمين المكثفة
كلها ، اذ تبقيها المصاييح الحارة التي لا تنطفيء . ووخزات حراب
الأقزام بفضي ، فتعد رقابها وتحقق الرؤوس باتجاه خطوط
العلف وتنقر ، تنقر ، فتعطش . تعطش ، فتشرب . تشرب ،
ثم ترفع رؤوسها لكن يعشيبها الضوء ، فتعود تظاظم ، وتنقر .
وتكرر ذلك ، بلا توقف ، ولا إبطاء ، حتى في لحظات لفظها
للزرق .

تكاثف احاسنا بالضيق ونحن بعد في منتصف الجولة ، ربما
بناثير الرطوبة المزهقة والصهد الحائق والضوضاء التي كنا ننتبه

اليها أكثر فأكثر والتي كان يحدثها النقر المتواصل لحشود الدجاج
بمصاحبة أزيز المحولات الكهربائية المتصلة بالمصابيح ، هدير
الموتورات ، والصوت الدائب لدوران خطوط الماء والمعالف
وبجاري الزرق . ورحنا ننظر الى الأقزام العاملين في هذا الجو
كمخلوقات ذات استعداد خاص للتأقلم ، مما كان يضاعف
شعورنا بعدم القدرة على احتمال المزيد ، ويركز رغبتنا في إنهاء
الجولة عند هذا الحد . وما كاد واحد منا يعلن عن ذلك حتى
حصل على موافقة مطلقة ، وشرعنا نلتقط العينات الحية . .
فتحنا قفصا . . اثنين . . ثلاثة ، ثم توقفنا مدهوشين لرؤية أحد
أعضاء الجحشا وهو يندفع كأنما لسعة خاطر مفاجيء . . يفتح
مزيدا من الأقفاص . . يفتح ، يفتح بفتح ، ويهتز بجنون وهو
يفتح . . أبدا لم تقفز خارجة من قفصها ، ولا تقلقلت دجاجة .



البلاد البعيدة



كانت الشبورة الشتالية الهشة البيضاء تحجب واحة الشوارع
والأزقة الخالية من الناس ، وتطّيب واجهات البيوت التي كنت
أخافها تصحو وتضبطني وأنا أفر ، وكنت خالعا حذائي أمسكه
بيدي كأني أخشى لو تصدر قدماي ديباً يسمع ، فيمسك بي ،
وخطواني تسارع كتسارع وجيب القلب الصغير الذي كان
مغطوفاً لقدام .. لقدام . قطرات الندى كانت تبل قدمي
بدغدغة حلوة ، فأضغط بها وهما ترطبان الأرض التي أهرب منها
غير نادم أبداً ، وكان أندحرج ملهوجاً لأرتقي في حضن يتظرف
ويوسع لي الصدر ، والأذرع مفتوحة لتضميني حالاً ... حالاً ،
في قطار ما أبدعه بي يسافر .

نقلت الى مساحة محطة القطارات عبر فتحة في السور كنت
أرصدها من زمن وأكاد أحفظ كل تعريجة تؤطر محيطها الخنون ..
نظمت متلفتاً خافضاً قامتي ، محتضاً حدائي وحقيبة المدرسة
الدمور التي أودعتها « زوادة السفر » ، ثم اختبات وراء عمود
أشارات رأيت فانوس هامة الاحمر مشورا بهيجا يبين رغم
الشورة ، وكنت أفش بعيني : أي القطارات سأركب ، وفي أي
عربة سيكون اختفائي .. وكندت أنكى الحيرة أمسكت بقلبي
الواجف : ترى أي القطارات يروح بعيدا لأركبه ؟ وقد كانت
أمامي زحمة من قطارات تطرس الأرضفة ، أرى مقدم بعضها
وبعضها لا يظالعي الا بأواخره ، ثم رأيت أشباحا داكنة غير
بعيدة عني تشفى بحركة أخرجني من قبض الحيرة .. كانت
الأشباح لرجال يلبسون أردية خضراء بها أزرار نحاسية .. كانوا
بروجيون .. يختفون للمحطات .. ثم يعاودون الظهور وقد
انحنوا يحملون أثيلة على أكتافهم ، وكنت أنسحب من وراء
الاعمسة لأتمكن من رؤيتهم عن قرب دون أن يلحظ أحدهم
وجودي . كانوا يحملون زُما من الجرائد ويدخلون بها واحدة من
عربات قطار ويخرجون بدونها ، ثم أتهم بعد ذلك واحدا ، غابوا
قليلا ، وعادوا يدفعون أمامهم عربات حديدية صغيرة محملة
بأجولة مخططة ، مغلفة ، مختومة ، ونوقفوا أمام عربة قرأت
عليها كلمة « بريد » مكتوبة بخط جميل كبير وبلون أحمر ،
وشرعوا - وأنا أكاد أهرز لهم لفرط ما فرحت - ينقلون الأجولة إلى
داخل هذه العربة التي كانت آخر عربات القطار . كنت أعرف

أن البريد يعنى « الحوايات » .. الحوايات التى تروح الى كل الدنيا وتصل الى كل البلاد حتى لو كانت أبعدها .. ولا بد أن بهذه الاجولة « جوابا » مرسلًا الى « البلاد البعيدة » .. وكادت أظاير وأظير لادخل هذه العربة التى وجدت فيها أول عصفور ينطلق حقيقة بحلمى .. لكن أول التحقق هدهد تطايرى ..

ترى متعبًا أقعد وراء سائر لأراجع « زوادة سفرى » مثلما كان يفعل أبى قبيل سفره .. ها هى ذى البيضات الثلاث التى سرقنها من عشة الدجاج وسلقتها خلسة ، وها هى الارغفة الثلاثة التى بدأت بنخبتها تحت ملاسى عندما أخذتها ، وها هى قطعة الجبن القريش لكنها نفت فى الورقة مضغوطة فى طوجة الاعداد ، وها هى حبة الطماطم ، وجميل انها لم تقعص وبقيت سليمة ، وأعدت هذا كله مرتبًا الى حقيبة المدرسة الدمور ذات الاذنين من نفس القماش تحمل منها ، فوسعت جميعا ، بلى رحبت بفردق الخذاء أيضا .. وراجعت « مالىتى » : تسعة قروش ، ادخرتها بعناء كثير ، وحفظتها مصرورة فى منديل لم يكن ليقارفتى أبدا .. ربطت طرف المنديل فى عروة بنطلون ثم أدخلت العصرة فى الجيب الصغير ، ومضت أراقب عربة البريد وأشباح الرجال الحمالين ، وما كادوا يخفون للحظة حتى جريت وكأننى أظير .. . مرفت فى طراوة الشبورة الكثيفة ، وقفزت الى داخل عربة البريد أنخىء وراء زحمة الاجولة المخططة .

وما لبثوا حتى جاءوا دون أن أراهم .. كنت أسمعهم فقط ، يحدثون جلبة ويتكلمون بأصوات خشنة عالية ، واقفلوا باب

العربة فابتلعت الظلمة ما كان منتشرًا حولي من نور رصاصي
يبتدى به النهار .

أحسست بتواصل الرعدة الطيبة تسري في بدن القطار ،
وسمعت جرماً يدق وصفارة تزغرد ، ثم عندما لطمت الاجولة
الواقفة بدن المكور خلفها وهي ترجع . . عرفت أنني أنطلق ،
وكانت دمدمة القطار تشتجر فتكتك ثم يكون مع الأسراع
هدير . . وأنا فرحت بهذا الهدير ، إذ كنت عارفاً رغم الظلمة أن
الأرض تطوى وتخلف في الوراء . . ومن فرط فرحي خرجت من
بين الاجولة أنطوح ، وأبث قدمي بأرض العربة حتى لا أقع ،
أو أتلاطم مع الجدران الحديدية ، وكان قلبي المخطوف لفدام
ينط فرحاً في صدري وأسمع صوت نطه ، وودت لو أعرف أغنية
أغنيها حل ايقاع هذا الوجيب الفرح ، وواتني الرغبة : أن أكل
كل رواق ، لأنني عندما أفرح أجوع ، وشيئاً فشيئاً كانت عيني
تعودان الظلمة فأرى المكان حولي أقل خصوصاً وأكثر انجاء . .

رحبت أحب كل البلاد التي أطمح إليها والتيها ينشد الفؤاد :
« مصر » التي جذبتني إليها حديثاً أو الآخرين . . أم العمائر
العالية التي يبين تحتها البشر كالسراب لعل ، والشرام - القطار
الذي يمشي في الشوارع وتركبه الناس حتى لا تتعب أرجلهم وهم
ذاهبون إلى كل الأماكن المدهشة الجميلة : « جنة الحيوانات »
التي بها الفيل أبو زلومة تركبه العيال وهو طيب لا يؤذي ، ومسد
قشعة الذي في الماء يغطس ويقب ، والاسد المخيف المحبوس ،
والنسائس التي تغرقز لباً كبي آدم ونحب الموز والفول السوداني ،

وكيف آدم تفرح حيناً وحيناً تغناظ . وأبو الهول الذي نصفه إنسان
ورأسه رأس أسد يطول السحاب وجنبه يكون الهرم الذي من
يلغ قمته يلمس بيده سقف الدنيا . ياه . . . مصر . . .

واسكندرية . . اسكندرية ببحرها الذي ليس له آخر وفيه
المراكب تسافر الى بلاد الحواجات ذات الثلج ابيض كالجليد .

وفيه كل الناس نعوم . . يلبطون ويضحكون ويصيدون السمك
الكهريا والملون وأم الخلول اللذيذة والمحار الذي عندما تغلي عليه
الأذن تسمع وشوشة وكلاما عجيبا كله ، ثم تجاوزت هذه البلاد
مصر واسكندرية ، وبعدت . . بعنت الى البلاد البعيدة : ذروة
حلم صحوى ونومى البهية الألوان . . بلاد بعيدة لم أكن أعرف
أسمائها ، لكنني كنت موقنا أنها بلاد ليس فيها مدارس بائخة
حولها أسوار خناقة وداخلها يتربص مدرسون غلاظ الوجوه
والقلوب يغرزون أطرافهم في (صرصور) الأذن ويضربون
بالمعصى على أطراف الأصابع وعلى ظهور الأيادي في الشتاء
وكثيرا ما يضربون على المؤخرات حيث يكون الواحد المضروب
ذليلا مهانا لا يستطيع أبدا الأفلات من وضع (العبط) بينها
يمسك باليدين إناس كان يظنهم الواحد أخوة له فيكتشف أنهم
زبانية للمدرسين الغلاظ ، بل زبانية قساة يشدون اليدين
والواحد مثنى على الفرج شدا بشعا يؤلم أحيانا أكثر من إيلام
الضربات التي تهوى على المؤخرة المسكينة . . أه . . بلاد
بعيدة . . بلاد لا يفاجأ فيها الإنسان بلطمة على الصدغ تخرج
الدماغ اذا ما شرد بحلم . . بلاد لا يجبر فيها الإنسان على

الاستيقاظ في الصباحات الباكورة الباردة ويقطع من دفء الاسرة
 اللذيذة ليذهب الى مدارس سخيفة لا تعطى شيئا الا الضرب
 والشم وكنم الانفاس والتذويب بالوقوف ورفع اليادي او
 بالركوع على حصوتين لساعات طويلة . . . بلاد كبيرها مثل
 صغيرها حيث لا تكون السن حجة تهرب الصغير عن الذهاب الى
 مشاوير بلا معنى ، وبعد المجيء منها لا ينقطع التوبيخ . . بلاد
 بعيلة . . بلاد ليس بها (دكاكين) يذهب اليها الصغار بعد
 الخروج من المدارس السخيفة فيشمون مزيدا من الشم
 ويذنبون ايضا لكن هذه المرة بحمل منشآت يروحون بها على
 وجوه لا تختلف في غلفتها عن غلظة وجوه المدرسين ثم تكل
 ابايهم من حمل الطلبات ، ولا تخلو الامر من ضربات تموى
 وتكون هذه المرة بشيء من حديد ويغير سابق انداز . . . بلاد
 ليس فيها بيت تاكل ، كل يوم كل يوم ، كشرى او بصارة
 ولا ترورها ابدا الفاكية الحلوة ، بينما لا تقطع فيها الامهات عن
 النزول على البدن بكل دعوات المصيبة والطاعون والنقطة
 والسخونة الحامية وضربة الدم والقرص من (اللباب) والعج
 في الظهر ، ومع ذلك لا يكف نواحين والبكاء . . بلاد ليس بها
 آباء يسعلون بلا انقطاع ويصفون دما أحيانا وتخرج أنفاسهم
 كثيرا ويزعقون دائما ، ودائما يتهالون على المرء لطفا وركلا دوغا
 سب ولا يبرح الحزن وجوههم رغم ذلك . . بلاد ليس فيها أولاد
 يضربون بالطوب ويعضون اذا ما تعاركوا ويسرقون من بعضهم
 البعض البيل و (الكاروز) وحتى نوى الشمس الذي تصنع منه
 الصفاير يسرقونه ، ويدعون الفتنة لبيع الايلاء على الآخرين

بالكذب ومع ذلك لا يسلم أحدهم من شر الأيذاء . حتى
الكلاب الحرة النعيسة تغدر بالعض ، والنقطط النحيفة تخطف
ما تلقاه . . . ياء . . . بلاد ليس بها هذا الغم . . . بلاد بعيدة لم أكن
أعرف اسمها ، لكنني كنت أرى في الظلمة الأنيسة كل دروب
غاباتها الخضراء وكل أشكال شجرها الملون المتمر ونخيلها
الخفيض المثقل بالرطب ، وكنت أعرف لغة كل حيواناتها التي
تصاحب الإنسان وتكلمه وأعرف بالطبع لغة ناسها العزاة
المساكين الذين لا يفاسون حرا ولا يرذوا وسلامهم ليس بالابادي
بل بالابتنام . . . بسمة تعني السلام عليكم ، فترد البسمة بسمة
مثلها . . . بلاد لا تخلو من ملائكة تطير بأجنحة من فضة وذهب ،
فتضيء دائما ، تحفها عصافير ملونة تصدح بموسيقى وغناء . . .

بلاد أنهارها تنبع من عيون في جبال خضراء وتجرى بعسل وماء
حلو ، ولم أكن لأكف عن الحلم بها أبدا ، وسافرت إليها وحي
آلاف المرات في أحلام كنت أتيحها لنفسي رغم كل شيء . . . وقد
كان القطار يهدر وأحبه بطير إلى البلاد البعيدة ، فأحس
بالجوع . . . وكنت أرتب للطعام في الظلمة دون أن اغادر صور
هذه البلاد ، مطمحي . . . وتحست جوالا مسطوحا من أجولة
البريد واقتعدته ، وعندما مدت يدي في حقيبة الدمور التي لم
تفارقني أتلمس الزوادة لأكل : إن الكيس نحني . . . إن الكيس
قيت في جلستي ، ثم إن الكيس صرخ بكلام غريب . . .
رفيع الصوت . . . قال : « اه صدري . . . حرام عليك . . .
أفطن حرام عليك . . . خرجني » وكان نيسي ينحل وأنا أسمع

ذلك فتطير من يدي حطية الدعور . . تبعثر الزوادة فتضرب
الفيضات والأرغفة وحبة الطماطم وجه شجر البلاد البعيدة ،
ولاسمها ، وحيوانها . . فتقلص جميعا وتعبس وأنا خائف والعربة
المقفلة ليس بها من مهرب ، لم سمعت الصوت الرقيق بتومل
أن أخرجه ، وتأكدت أنه صوت رقيق بالفعل بل رقيق وهش . .
صوت بنت ، فرحت أنحنى نصف مطمئن ونصف خائف . .
أرتعش وأنا أفتح فوهة الجوال . . أفك عقدة الحبل المشدود
خلال عراو معدنية وأرخيه ، ثم أحست بشيء يرف ويطول
ويخرج من الجوال حتى انتصب صغيرا في مثل طولي يقف في
مواجهتي ، ولم أعد أرتعش إذ تأكدت من كون هذا الشيء
بتا . . . بتا صغيرة مثل كانت الظلمة التي خفت كثافتها تبينها
لي شبحا أحست أحاسا غامضا بطينه ، ورحت أناكد من
ذلك . سألتها عمن تكون فأخبرتني أن اسمها نواردة وأنها كل يوم
كل يوم تختبئ في جوال وتنام في القطارات لكنهم في هذا اليوم
ربطوا الجوال ربطة متينة ، وسألتني فقلت لها أنني مسافر . .
مسافر إلى مصر واسكندرية و . . وضحكت وهي تخبرني أنني
خائب ولا أعرف ، وأن القطار الذي يروح مصر لا يروح
اسكندرية في نفس الوقت ، وكنت مستغربة لهذا لكنني مطمئن
اليها وأدرك بشكل غامض أنها صغيرة مثل لكنها تعرف
الكثير . . واكتشفت ، بل هي التي نبهتني إلى وجود ثقب في
جدار العربة تنفذ خلاله حزمة رفيعة من الضوء الذي كانت
تسح فيه قرات الغبار متحركة ببطء . . كان الثقب في مستوى
قامتينا فجعلنا نتبادل النظر إلى الخارج من خلاله . . أرى حقولا

تطوى وشجرا قريبا بحرق مع اعمدة تحمل أسلاكاً ، وراها في
البعيد تجري في اتجاه معاكس لشجار دافئة تصنع قوساً لا يبلغ
طرفة القطار أبداً ، وعندما أخبرت نواره أن الاشجار تجري
ضحكت وأخبرتني أن الاشجار لا تجري بل أن القطار هو الذي
يجري ، وفكرت في ذلك فتبينت أنها صغيرة حقاً لكنها تعرف
الكثير . وكنت أسأها كلما توقف القطار هل جاءت مصر فتتظر
من الثقب وتخبرني أنها لم تأت بعد ، وأخبرتني أن محطات أخرى
كثيرة ستأت وتوقف عندها القطار قبل أن يصل الى مصر .

وكنت أصدقها . . كنت أصدقها وأطمئن اليها وفكرت لو تأكل
معي ، فالتحيت أبحث عما تنأثر من الزوافة . وعندما رأيت نواره
سألني عما أفعل ، فقلت لها ، وسألني ان كنت سادعها تأكل
معي فأجبت بنعم لا أشعر بها كأننا نرقص وتزفوق فرحة . . صونا
صغيراً كالت وصونا صغيراً كنت ، وجمعتنا من أرضية عربية
القطار السوداء ما أمكننا : رقيقين وبياضة وحة طماطم وفناقت
من قطعة الجبن القريش . . فعدنا واقتسنا كل شيء ، ومع
أول لقمة بدأنا نحس بهواء مسموم بالبرد بلفعا معا ولا نعرف
من أين يأتي لأن الثقب وحده كان صغيراً جداً . . أخذنا
نضالخط ، ونحرك مرتين لنهرب من هذا البرد ، فندخل بين
الأجولة الواقفة . . فرغت من بين أيدينا الارغفة الاثنتين
والغموس القليل وكانت الأجولة الواقفة تحوش عنا الهواء لكن
البرد كان مصراً على التسلل ليلسنا معا ، فرحنا نفرغ أحد
الأجولة لندخل فيه لعلنا نخشى من البرد . كنا قد فكرنا في

ذلك - وكانت الخطابات تخرج فتعمل رفرقة في خروجها وقالت نواره وهي تقصد صوت خروج الخطابات انها مثل الحمام الذي يطير وكان هذا صحيحا وجميلا حتى انني وددت لو أفرغ كل الاجوثة لاسمع هذه الرفرقة من جديد ، لكن البرد كان شديدا وكنت اتعجل الدخول في الجوال الذي أفرغناه . دخلت الجوال ثم راحت تبغى نواره ، لكنها لم تستطع اذ كان الجوال لا يسعنا هكذا ، فخرجت . ووقفنا حائرين تساءل : كيف يسعنا الجوال معا ؟ وفكرت انني ارتديت كل ما عندي من ملابس قبل ان اخرج حيث كان الصباح شديد البرد وانا أتسلل من البيت .

وأخذت اخلع بعض ملابسى لعل اكون ارفع فبسعنا الكيس - نواره وأنا - معا . وسألني عما أفعل . . . وقبل ان أجيب عادت تسألني ان كنت عريسا لاخلع ملابسى ؟ استغربت ماذا تعنى ، وسألتها لماذا تقول ذلك ، فأخبرتني انها شافت : كانت تخدم عريسا وعروسة وشافت . . شافتهما : العريس ينام عريانا وعروسة معه تنام عريانه ، وفي الصباح تقوم العروس لتطبخ طعاما ويروح العريس الى الشغل ، وأخبرتني نواره انها كانت تسمعها يضحكان فرحين بذلك ، وسألني لو تعمل عريسا وعروسة ، وكنت مدهوشا وأحب منها ان تقول كثيرا في ذلك فقد كان هذا الشيء يشبه ما يكونه ناس البلاد البعيدة التي أنا صاع اليها . وزحنا فرحين نرتعش من شدة البرد ونحن نخلع كل ما نلبس . . رغم البرد كان هذا الاحساس بالعري جميلا وفكرت ان السمك لابد يكون فرحان ، ووددت لو أعود عثريا

هكذا في ماء ، وفكرت لو أن الماء يكون دافئا ليصبح هذا الشيء
أجمل ، وانزلت قد دخلت الجوال بسهولة ، ثم دخلت تنزلق
لصقي نواره ... ووددت لو أنها تخرج وتعاود هذا الانزلاق ...
لقد كان ذلك أجمل وأعذب حس جرّته ... أن يشعر الإنسان
بتفنه محمرا وحفيبا وسيطر بسهولة على كل أطرافه كأنها جميعا
بقربه ... ثم في البرد يجد الإنسان شيئا فيه طراوة ودفء ونعومة
بمس جلده ، ويكون اللمس أنيسا ، وتصبح مساحة هذا اللمس
حتى يود الإنسان لو يلمس جلده جميعا فلا تترك قطعة ولو صغيرة
بغير هذا اللمس ... خليط ياهر من الدفء الحنون والدغدغة
واللعب والايساس ، ثم وجدت يدي تشقان طريقا في هذه
الرخيطة لأحيط (نواره) بذراعي ، وكانت هي تفعل ذلك
أيضا ، وحقا كما قالت كان هذا الأمر يجلب سعادة من لا شيء ،
حتى أن الإنسان يحب كثيرا أن يضحك ... لقد كنا نضحك حتى
نسمع صوت ضحكنا أعلى من هدير القطار ... واكتشفت لذة
هائلة في أن أفرك جلديها بجلدي وأن تفعل هي نفس الشيء ...

كنت أتحرك وهي تتحرك فتحتك صدورتنا ، وترفس فتخلل
سيقاننا بعضها بعضا باحتكاك ، وكنت أمرغ وجهي في وجهها
حتى تحنك الحدود ، وأحسست بشيء لم يحدث لي أبدا من قبل ،
وقد سألتني عنه نواره فلم أعرف جوابا ، وكنا لا نتوقف عن هذا
الحراك الذي يفرك الجلد بالجلد ، حتى أننا نفصنا عن الجوال
تربا كثيرا جعلنا نعطس ، فتوقفنا وقد أحسنا بالتعب وكان
هناك في الضم رفق وهي تحنن بكفيها الصغيرتين ظهري ، وأنا

أحضر ظهرها بكفى ، ونلت عظام ظهرها الدقيقة الى
حيث أن شيئا لا يغطيها الا هذا الجلد الرقيق الدافئ .
فصعبت على حتى أتت خفت لو أبكى وقلت لها بغير ما مناسبة
وفجأة أتت سأخذها معي الى البلاد البعيدة وكنت أفسها بلدة
فلأت تطاوعني حتى أتت انقضت فأصبحت صغيرة جدا في
حصى ، وسألتني عما تكون هذه البلاد البعيدة ، غطت أوغل
في الجوال وأنا لا أتركها ولدت قوهه كأنى أخلق بابا لتكون في
مأم وأقول فأسرى . وفي الظلمة الدود ، والدفء الطيب ،
ورائحة التراب والكثان والمطر التي لم أميز أبدا من أين نبعث .
منها ، أم متى ، أم من جوال السريد ، وفي الانز الصغير من
الصوت الذي يقي من هدير القطر وشيئا تكاد في مكنتها
نصفه . رحت أوشوشها . حكيت لها عن البلاد البعيدة
وكنت أحمم رحرقة سيجي . جزائر في بحر ليس له آخر ،
وغابيت من بين شجرها الولود الدان الثمار تطلع الشمس .
قلت لها أنتي سأخذها معي لأأكل من هذا الثمر الدان الكثير
الالوان المسكر ، وقلت لها كثيرا حتى وجدتها تنعس في حصى
واسمع رفيف أنفاسها . ولا بد أنى نعت مثلها اذ فتحت عيني
مدعورا فجأة

أحست ببرد يصب على عروسي ، وكان الضوء بفرع عيني ،
ووجدت أصابعي تشنج لا اراديا وهي تشبث بقوهه الجوال
وكان هناك وجه فظيع ينظر الى بالشر من قريب ، تحمله عتق
غليظة تدخل في جائنة سوداء حشنة تشرق فيها أزرار من

نحاس ، وكانت هناك خيثراله رفيعة أراها تظهر مارقة في ساحة
ما أبصر ثم تغيب فأحسها تضرب على الجوال . . . كانت بعض
الضربات تقع على مكان بدن ، ولأنه أن بعضها الآخر كان يقع
على مكان بدن نوازة التي كانت لا تزال متقلدة وإن استيفت ولم
تجد شيئا تثبت به غير جسمي ، ثم أن انتهت إلى صوت الرجل
القطيع بأمرنا أن نخرج من الجوال وهو لا يتوقف عن الضرب .

وكان يلفح وجهي برائحة قطيعة نخرج من فمه مع الأمر
والشبهة ، ثم أحست بشعري يكاد ينحلع وفروة رأسي
تشتعل بالهائل . . . لقد كان يسحبني من شعري ليخرجني من
الجوال ، وكانت يده كبيرة تلم شعري كله وأحس أصابعها تكاد
تحطم صندوق دماغى . . . ووجدتني أخرج ، ساجدا معي نوازة
التي تعلقت بوسطى ، لا أعرف لماذا تذكرت صورة أربى ملبوح
تسلخ فروته في هذه اللحظة . . . كنت عاجزا عن الصراخ وعن
البكاء وقد تيسر ولم استطع حتى أن أطيع الندى أدركت أنه
عكسى بأمر أن أقف وهو يلسع جسمي بخيثراته ، وكانت
نوازة مهيئة أيضا وقد تحجرت أذراعها حول وسطى ، فقتلنا
كثيرا من الضرب ، والعكسرى بأمرها وينادىها بشبهة أن
تتركنى . . . ثم كان بدن العريان ومعه بدن نوازة يكس تراب
أرض عربة البريد الباردة ، وينبذ عند عتبة الباب ليكنس هذه
المررة تراب الرصيف ، الساقع ، وكانت اليد الرهبة تفعل هذا
كله بشدي من شعري . . . ثم تغير اتجاه الشد إلى أعلى ،
ووجدتني أصاب واقفا ، فوقفت جنبى نوازة وانفصلت عني

أخيرا ، فرأيتها حيلة ومعصرة رغم شحوبها الذي جعلها بلون
 شمعة ، لكنني لم أرها أكثر إذ عاد ضرب الخيزرانة هوى . . . لقد
 أوقفنا العسكري وظهورنا بأكلها جدار كالكحلج الصقنا به وانها
 بضرب وهو يهددنا بالموت لو حاولنا الجري ، ثم أوقف الضرب
 عندما وضع الخيزرانة تحت إبطه ، وخلع من حزامه قيدا حديديا
 وضع في حلقة واحدة من يدينا : يدي اليسرى ويد نواراة
 اليمنى ، وساقنا وسط الزحمة القاسية عريانين تحت السقف
 الجمائون الكنايح حتى أدخلونا الى حجرة ، وجاء عساكر
 آخرون ، ثم قلبونا على ظهورنا ورفعوا أقدامنا الى أعلى حيث
 وضعوا الأقدام في فلكة واحدة يرموا حبالها طويلا حتى تمسك
 جيدا بالارباع النحيلة فلا تتحرك . . . كانوا يرددون أنا - نواراة
 وأنا - حرامية الطرود ، اللذان أمسكا أخيرا . أخذوا بسألونا
 عن « يشغلنا حساب » وعن أشياء وعموا أننا سرقاتها ، وكانت
 الأقدام الصغيرة تشوي بعضا من الجريد . . . كانت نواراة تصرخ
 صراخا جادا متواصلا ونقول أنها لم تسرق شيئا . وكنت أقول
 أصرخ أيضا وأحس مع الضرب بدموع تنسكب حارة لتسيل على
 جانبي وجهي وتبل شعري وأذن . . . كنت أقول أنني لم أسرق
 شيئا ، وأخبرهم بأنني كنت مسافرا فقط . . . مسافرا الى « مصر »
 والى « اسكندرية » . . . وخفت لا أدري لماذا أن أقول : « البلاد
 البعيدة » . . . خفت ، وكان ألمي وصراخي مشوبين بخجل
 غريب من نواراة ، حتى أنني لم ألتفت أبدا لآراها وقد كان
 صراخها الحاد المتواصل يذيع في كسكني ، ثم توقفوا عن

الضرب وفكروا حبة أرمانا وكنت لا أستطيع الوقوف توا .
ثم أحضروا البنا ملايسنا فلبسناها . وسمعتهم يتكلمون عن
أشياء مثل : « ابداع مؤسسة أحداث » و « تسليم بتعهد لولي
الامر » . ولم أكن أفكر في هذا أبدا . . كنت أفكر لو أكبر فجأة
وأستطيع ضربهم جميعا . . وكنت خائفا أن أصبح عاجزا عن
المشي عندما أكبر لهذا لما كانت عيوتهم تتحول عنى كنت أجرب
قدمي . وكأننا نتحرك كالـ



الأسوار

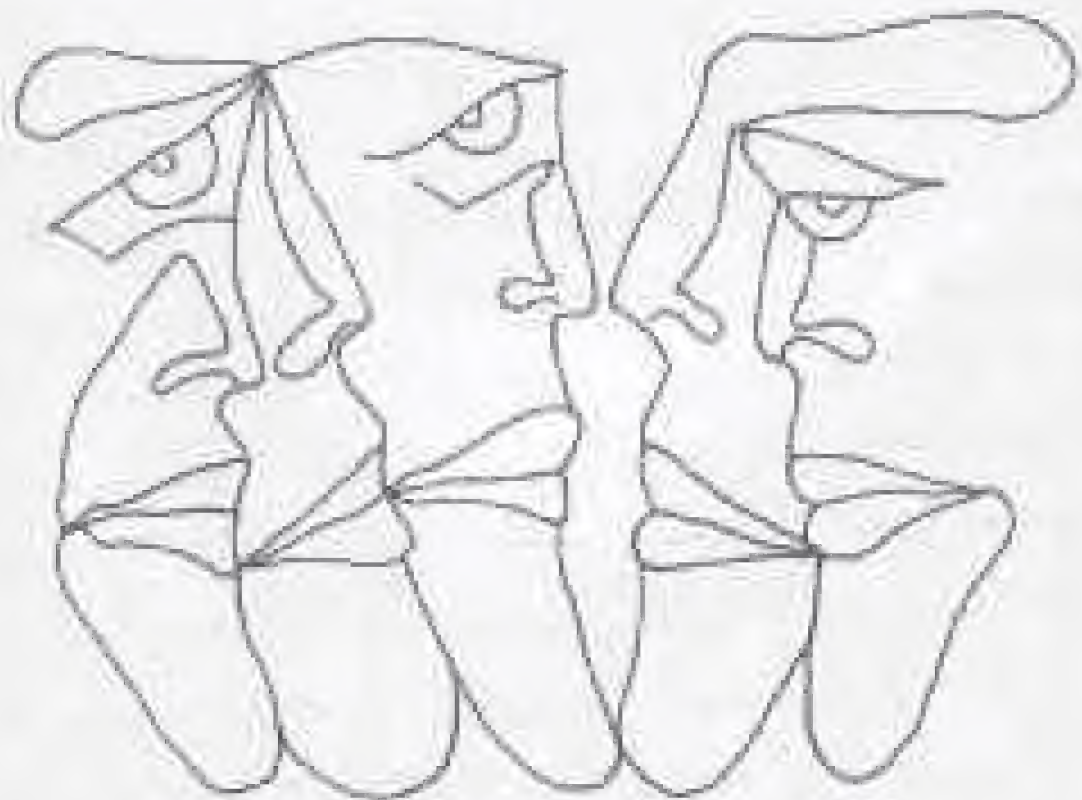


وهم نفر من المسجونين لديه ، كان رأس السجن الكبير
يخشاهم ..

يخشى بالذات معرفتهم الدقيقة بالائحة السجون وتمسكهم
الشرس بنزير ما لهم من حقوق ، ولولا هذا لأصدر أمره بمنعهم
من مغادرة الزنزانات وحرمانهم من طابور الفسحة في أرجاء
حوش السجن المتقلص ، لكنهم كانوا ملتزمين بنظام المسجونين
حتى وهم يصعدون سلم مستشفى السجن في طابور الفسحة ،
ويقفون بأعلاء مطارحين صندوقهم على الدرابزين .. يمدون
رقابهم ويحدقون طويلا في شيء ما ، كأنهم ينتظرون هذا الشيء
يأتي ويصرونه خارج الأسوار ، وهم يفعلون ذلك باستمرار منذ
جاءوا ، وفي وقت الظهيرة بالتحديد ، حيث في لحظة معينة :

يبدأ واحد منهم في التلويح لشيء ما خارج السور فيشرعون جميعاً
بعده في التلويح ..

هل كانوا يعطون إشارات ، ما ، لأحد في الخارج ؟ هل كانوا
يقذفون بأوراق أو خطابات وهم يصطنعون ذلك التلويح الذي
بدأ له مجرداً من المعنى ؟ ولقد لام ، المأمور ، نفسه إذ لم يفكر في
هذا الأمر من قبل ويضبطهم في مخالفة يترجسها في تصرفهم -
هنا - اليوم - الغريب ، ويودعهم التوتالات الإنفرادية ، وربما
استحقوا الجلد أيضاً ، وتهد في ضيق ، لكنه على أية حال قد
أعد عدته اليوم لضبطهم وهم لا يشعرون .. إذ وضع أحد
العساكر تحت السور في الخارج ليراقب ما يحدث في الشارع عند
هذه اللحظة ، وأعطى أمراً مشدداً لعساكر الأبراج أن يفتحوا



عيونهم جيدا وتكون صفاراتهم على أهبة الاستعداد للإنطلاق حتى تتحرك فرقة الحرس الإضافية التي تجهزها ، ثم انه أخل الحوثر ومنع المسجونين الجنائين الذين يسهل التحكم فيهم من مغادرة العبر ، وتسلل خلسة ليختفي في التكمية القائمة أمام المدخل حيث كان يتكته رؤية هؤلاء المسجونين الخمسة بظهورهم وهم فوق ، ويراقبهم بدقة من خلال الشفرات الكثيفة بين تشابك أفرع اللوف واللبلاب في مكانه هذا ، وكان مضطربا إذ راح يتبدل الجو الى برودة ، وكانت نعيم السماء .. فيها يعلى أنها متطر .



كانوا يعرفون إذ يبدأ الحديث عنهم بأنهم أصلب نمة رجال في المدينة التي يسكنها مليون من البشر ، وكانت تُحكى عنهم الحكايات التي تبلغ حد الحرقاة ، هكذا كانوا محاطين بهالة من الإكبار حتى من قبل العساكر والضباط المعيّنين لحراستهم ، وقد كان في انتظارهم حكم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، بدوا يرغبه غير عابئين ورايطي الجاش عما كان يكتف حولهم الحالة ويوحى بأنهم كالثبات أعل من مرتبة البشر العاديين ويعد قائما بذكرى اليوم الصاحب الذي حكموا فيه المدينة وهم يحركون عشرات الآلاف من البشر الساحطين .. يتظاهرون وقد امتلكوا كل الشوارع ، وراحوا يكتسحون أمامهم النفيض كمنق من ورق قديم تطيرها رياح جافة . وعندما تبدل الأمر وأرجحت كفة النفيض قبض

على مائة وخمسين رجلاً راحوا يخرجون من السجن تباعاً حتى
تبقى خمسة لم تعد تلوح لى بارقة أمل في خروجهم : الطبيب
الشاحب الصغير الجسم ذو العينين الساهنتين الغريبي
التحديق ، والمدرس الضخم الذي يبدو وهو يتنقل كأن كل قطعة
فيه تتقاذف بعصبية ، وعامل البناء الأسود الفارع ذو الملامح
الزنجية دائم الابتسام ، وطالب الحقوق بالغ الوسامة ذو الشعر
السائب المتطاير ، وفني المعدل الربعة المذكور

كانوا يمثلون خمس جمرات تبدو ساكنة منطفئة لكن عندما يُنفخ
فيها تتهارج ملتهبة لتصنع حريقاً عاتلاً بحجم مدينة ، وفي الفترة
الأولى المبكرة من سجنهم عندما كانت نبرة السخط لا تزال تُسمع
في الشوارع كانت المدينة - تكاد أن تكون جميعها - تتوافد لتراهم
من وراء القضبان .. طلاب المدارس والجامعة ، وفتيات من
كل عمر ، ورجال من كل مهنة ، وحتى عجائز النسوة والشيوخ
كانوا يأتون ، يتقاطرون على مدار اليوم ويأخذون في الدوران بلا
كلل حصول السجن لعلهم يلتمحون واحداً من « فرقة
الشجعان » - كما كانت تدعى ثلة الخمسة - ويطيرون إليهم قبلة
في الهواء أو هزة يد ترسم أصابعها علامة النصر أو هتافاً حماسياً أو
مجرد نظرة لا تخلو من دفء المعنى بالتواصل ، وكان عساكر السور
يفشلون دوماً في ردّهم أو تخويفهم فقد كانوا كثرةً ويأتون دائماً في
جماعات .

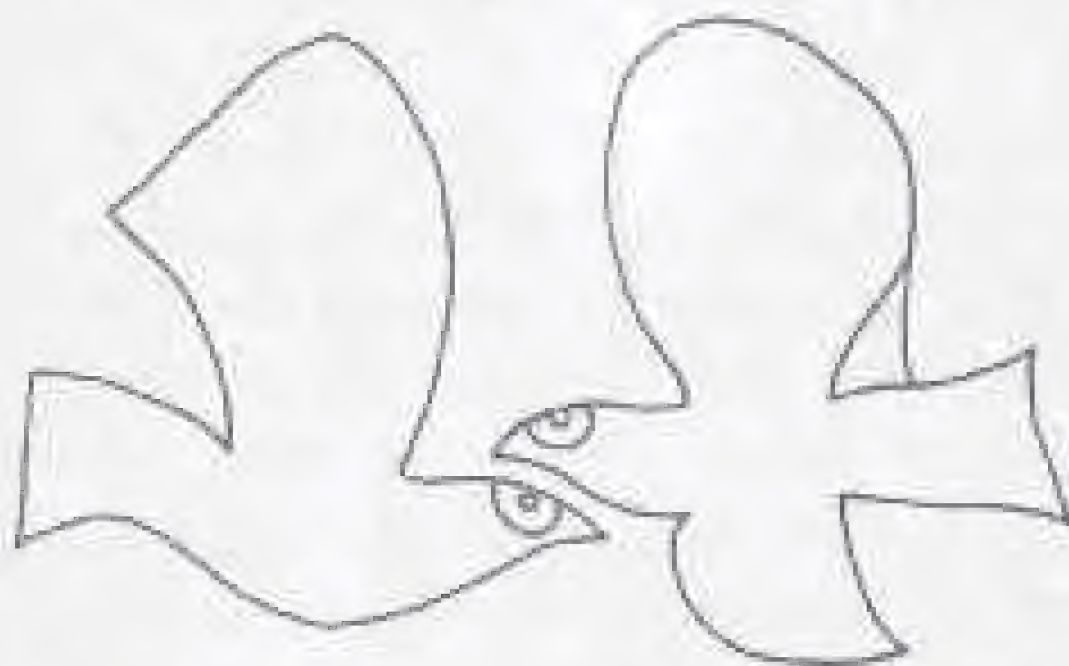
وكان بالفعل وليس بتعظيم شطرة شعر بدأ يغتمم بها الطبيب
الساهم : « إن طول الجرح يُغري بالتناسي » أخذت وقود الأتین

لرؤية الخمسة تقل رويداً رويداً حتى لم يأت زائر واحد
ولفترات راحت تطول ، وكان العالم المختزل إلى سجن تقطع
منه زيارات الناس فيختزل أكثر ، وكلما أوغلت الشهور يتحول
الواحد من الخمسة إلى مجرد مسجون ، ويتحول القضية التي
سُجن من أجلها إلى مجرد ذكرى . . مجرد ذكرى لا تؤلس كثيراً
مهما كانت درجة البقية فيها ، وكانت تظهر على الخمسة مباء
الحزن المكتوم بالأسوار ، الذي يظهر في شكل الصغرة الشاحبة
والترهل المترايين كلما قدم العهد بالحس ، وكانت هناك لحظة
وحيدة عند الظهيرة من كل يوم تأتي للخمسة فلا يتخلفون أبداً
عن لفاتها ، تلك هي لحظة مرور الأطفال الداهيين إلى الامتداد
والذين يمكن رؤيتهم من فوق سلم مستشفى السجن . . يمر
الأولاد والبنات في جماعة كبيرة متقاربة كعنفود ، وعندما تقع
أعينهم على « نامس مسجونين » يظهرون من فوق أسوار السجن
يتوقفون . . يتنادون مخبرين بعضهم البعض « المسجونين . .
المسجونين » ثم يسكتون إذ يتجهون جميعاً إلى المشهد ، ويأخذون
في تأمل مفعم برقة الإشفاق الطفل . . وعندما يلوح لهم يده أحد
المسجونين الخمسة يكشف الصغار لعبة طريقة ونسور
الإشفاق . . يلوحون جميعاً للمسجون الذي يلوح ، ثم إن
الأطفال يميلون أكثر إلى التقليد والتنافس ، فعندما يخرج أحد
المسجونين مندبلاً يلوح به للأطفال يخرجون جميعاً مندبلاًهم
ويلوحون ، ومن ليس معه مندبيل يبحث عن أي شيء يلوح به :
ورقة بيضاء أو فائلة الألعاب ، ولما يأخذ المسجونون الخمسة في

التلويح . معاً . للأطفال يروح الأطفال في تفاخر مبتهج يلوحون
بتصايح وكأنهم قلزوا وجعلوا الخمسة صغاراً مثلهم ، ومثلهم
يلوحون ، ثم أن الأطفال يريدون معرفة من يخسر وينزل يده أولاً
يستعرون في التلويح للمسجونين ، لكن المسجونين الخمسة
لا ينزلون أياديهم ، ويستعرون في التلويح

ولما كان الأطفال وهم لا ينزلون أيديهم في الاستاد ، يربطون
الإنصراف في نفس الوقت ألا يخسروا يتحرك موكبهم صوب الاستاد
وأيديهم المرفوعة لا تنزل ، ولا تكف عن التلويح ، حتى يخلو منهم
الشارع . . يخلو ويصبح موحشاً كاللحظة التي تسبق الإجهاش
بالبكاء .

وهل كانت هذه اللحظة مجرد لعبة يلعبها فريق ، الشجعان ،
الخمس ، ويستعدون لها بالإنظار كل يوم ؟ إن واحداً منهم لم يقل
أبداً للاعتر أنه ينتظر الأطفال ، ومع ذلك كانوا يصعدون جميعاً



درجات السلم عند الظهيرة ، ويتفكرون في صمت وهم يحدقون
بتعلم واضح في ساحة الشارع التي تقع في حيز رؤيتهم من
موقعهم هذا . وكأنهم يحجلون من البوح بهذا الأمر الصغير ،
يتبادلون النظرات التي لا تستقر ، وإذا استقرت يهرب منهم
الواحد بعينه وقد ظن أن زميله قد كشفه ويبادر بالتمويه : « على
فكرة بيت خطيتي قريب من هنا وهي شمر من السكة دي » رغم
معرفة أن زميله يعرف كونه أصبح بلا خطية وقد أرسلت إليه
الخطية ديلتها عندما حذر قرار الانهزام ولاح حكم المؤبد محكنا ،
أو يقول واحد لآخر « يا أخى المنظر من هنا حلو جداً ومريح »
رغم معرفتهم جميعاً أن شيئاً لا يبين لهم الا قطعة من شريط
أسفلت كالحج ورصيفاً يحده سور الأستاذ الذى يخفى ما وراءه
وكانوا واقفين بأعلى السلم منذ ثلاث ساعات وقد بدأت المطر .

ثم أن المطر راح يشتد ، فوقعوا بإقاعات متراتهم وكانت رؤوسهم
تبتل ، ويسيل الماء على وجوههم ثم ينزل الى الصدور ،
فيرتعشون ، ويقول أحدهم وهو يرتعش : « يا أخى المطر دا
شئ جميل » . ويؤمنون على قوله وهم يرتعشون : « فعلاً .
فعلاً » . ثم عندما بدأت الريح في توجيه المطر الى وجوههم
وصدورهم مباشرة راحوا يتراجعون وينصقون بالحائط الذى
يخرج منه السلم وينظرون مع ذلك بزوايا عيونهم التي لم تكن
للتفكك أبداً رؤية قطعة الأسفلت التي يرقبونها منذ أكثر من
ساعات ثلاث ، وقال أحدهم بعد أن نظر الى ساعته التي مسح
عن زجاجها الماء وهو يتهدد : « ياه الساعة أربعة ومعاد النعام

قرب ، لكن آخر كان يستمت على التفاوض وهو يتكلم بعصبية
« لآله عشر دقائق » . « قانوناً له عشر دقائق » وتلثم
أحدهم وهو يلبس بحرص كأنه يخشى الانكشاف : « آ .
أظن . أظن الناس برضه ما تخرجش عبالها في الشادة »
وغمغموا بحزن محبون : « تقريبا . تقريبا »

ثم برز لهم المأمور يخرج من التكمية ويبدو شديد الانفعال وهو
يصفق بغضب ثم يشير إليهم بحدة ويتكلم كأنه يصرخ :

« يا اللا يا حضرات ع العنبر .. فسحكنم إنتهت والتعام

ها يبدأ »

وراحوا يتلکاون وهم يهبطون ، ذاهبين الى العنبر .. يتلکاون
كأنهم يتزعمون أقدامهم المتصفة بحديد الدرجات ، انزعاجاً
يؤلم .

الحرب



« تم ، تم ، تم ، طم »

جاءت نسمة الصبح بإيقاع الطبله . . سمعت أنا ، وسمع أبو
الروم ، فسأله فرحا :

- حرب ؟

كان راقدا يبطه على فرع عال في شجرة ، كوز اللبن ، وكنت
تحت الشجرة أجمع الأكواز التي يقطفها وأعيثها في صفائح صغيرة
صلبة . راح يزيح تكاثف الأوراق العريضة الخضراء أمامه ،
ومن الشجرة التي فتحها نظر ، وأجاب :

حرب .

عرفت أنه أطل على المنظر من فوق حيث رأى : العربة الصقيلة
التي تحمل التابوت ، والحياد ، والرجال المشيعين ، وهيال ملجأ

كنت أحب ذلك التبارى الذى لم أتوقف أبدا - ولو للحظة - أمام
دافعه ، وكان مكان هناك - كأنما ورثته يوم تعلمت الوقوف - عند
الأجناب ، فسالت أبا الروس لو نذهب الى الحرب وترك أكواز
اللين لوقت آخر ، لكنه رفض بقطعة مستهزئة من فمه ،
وأخفض رأسه الكبير الذى يشبه الشماعة ، وطرفت عيناه
القرنان ..

قال يكلمنى وأنا مدهوش :

- « بالك .. القبط ياخذوا كل حاجة معاهم التربة لما يموتوا »
لقد كنت أريد الذهاب الى « الحرب » وكفى ، هذا كل ما فى
الأمر ، لكنه أشاح بوجهه وراح يتكلم عن أشياء غريبة ، فرددت
عليه وأنا مغتاظ :

- كذب فى كذب ..

انفض ورماني بأحد أكواز اللين ليقع الكوز بطرفه المذهب على
رأسى ، فرحت أفرغ الصفائح مسعورا وأقذفه ،
عندما جاء أحد الأكواز فى دماغه - قرب العين ، وقس وتكرر
وجعل يغرغر ويروم ، ثم أخذ فى الزحف تازلا كقرد مغتاظ ،
وكانت الشجرة (تهزهز) تحت

قدمت ساقا على ساق ، وشرعت بلى متحفزا ، ولا أذكر أن
أحس فجأة بألم فى بطنى ، وسمعت صوت بصرخ ، ثم إن أبا
الروس كان يدور مثل الغزال قبل أن يهوى وأنا معه ، وأذكر بعض
الثقل فى التراب ، وركبته بمشقة ، ولم أهنأ راكبا وهو يترق ترابا
نحنى ويقول :

- أنت ح تروح النار . . لحامى للقبض تروح النار .
تراخت بدائى وقعت عنه ، فغدرى برفسة فى دكبنى ولم أردعها بحم
انه كان مسطوحا على ظهره ومكشوفاً أمامى . كنت خائفها ،
تبثق أمام عيني صورة متاجعة لنار حراء ، وسيخ حذبتى عمتى
يحترقنى ، وأحد الزبانية يفلونى على النار . . أصرخ من ألم
الحريق وما من محجب تغير صوت يوعده :

- لاجل تطل لحامى للقبض يا بن فاطمة . . لاجل تطل لحامى
للقبض .

كانت أبى تقول لى ، حتى أسمع كلامها وأطيع . . كانت
تقول :

- إسمع كلامى لاجل أنتفع لك . . ذا كل واحد يوم القيامة
ينادوه بإسم أمه .

وظلت صورة النار تلبثنى بأروهاب ، لكننى عندما الحيت أجمع
الأكوار التى تبهرت ، جاءتنى الفكرة ، فزعجت بها فرجاً :

- هاه يا أبو الروس يا ضلالى . . أنا اسمى محمد . . اسم محمد
حبب الله ما يعديش عالنار يا ضلالى .

لكنه أحطنى فى دقيقتها ، إذ مط شفتيه العليظتين يصدر صوتاً
قيحاً ، ويقول باستهزاء :

- هى . . كلام عيال عيال يابنى . . يابنى . . لحامى للقبض .

تروح النار . . انشالله تكون الشيخ حسين ذات نفسه .

ماذا أفعل ؟ رفقت الكلام لأبى الروس الذى تبدى شاهداً
رهياً على خعليتى وقلت وقد عاودنى الخوف :

- اياك بتكذب يا أبو الروس . . حرام عليك تدخلنى النار . . أنا

ما حاميتش للقط ، انت بتكذب يا أبو الروس . . بتكذب
انت .

وأقبل نحوي بإسطا كفه اليمنى ليضعها في كفي ، فصالت
ذراعي على صدري بتردد .

اقتربت ببطء جاد ، ومد يده ، بقول بجدية :

- « عهد مين ده ؟ »

أعطيت يدي اليمنى ، ورددت :

- عهد الله .

أخذ يدي ، وأخذت أفروعنا تهتز على أيقاع ما ينطق :

- « عهد الله . . وعهد الله . . وعهد الله أبو أربعة وأربعين

يمين . . أقول الحق . . إن شفت حسن ابن ياتعه السوداء . .

ومعاه صليب ذهب في ذهب . . حاية من ترب القط ،

انفصلت أكفنا عندما سكنت ، ولم أجد لدى ما أقوله ، وكألت

صباحات الحرب تنأى إلينا من بعيد لكننا مضينا نحمل

بضاعتنا - العلب الصفيح وبها أكواز اللبن - نقصد شارع

العطارين ، لتبع للشوة الحياي : الصفحة بفرش .

كنا نسمع أنهم يأخذون الثمرات الخضراء التي تشبه أقماع البامية ،

يكسرتها على بطونهم المتفتحة ، فيثال السائل الحليبي من بين

شقوق الثمرات المكسرة على امتدادات البطون . . وعند

الولادة ، يضعون عيالا أيضا خضر العيون بفعل سحر يكمن في

هذه الأكواز .

هكذا كنا نسمع ، كنا نسمع هكذا . وكان أبو الروس يهم

بالكلام فجأة ثم يتوقف .

بعنا بضاعتنا كلها للنساء الحبالى فى شارع العطارين ، وبعشرة قروش كاملة . .

اقسمنا القروش بالتساوى فى البداية ، لكن ابا الروس غالىنى بعد ذلك ، وأغار على قرش من قروشى . اشترينا ثمرساً ، وحمصاً ، وشقق قول بالدقة الحمرا ، وعصية بالسهم ، ثم أخذنا نكسك . .

مررنا بكل السينمات ، وامام سينما « ركس » توقفنا طويلاً . . على الواجهة بهرتنا صورة « الشجيع » يركب حصاناً ، ويمسك بمسلس لماع ، وحول وسطه حزام « رصاص فى رصاص » . تخيلنا أن ندخل لنرى « الشجيع » وهو يطارد العصابة ، ويردبها واحداً وراء واحد بمسدسه ، ولم تكن قروشنا لتكفى . . كان الباقي معنا نحن الاثنين قرشاً واحداً .

وشوشنى أبو الروس بكلام كثير كثير ، وكنت مبهوتاً ، وشعرت بأذن رختين ، واتفقنا أن نتقابل بالليل ، ونذهب الى « ترب القبط » .

أخذ بطن فى رأسى السؤال : هل الشجيع الذى تحبه مسلم أم قبطى ، وكنت خائفاً لو أسأل ابا الروس فيفزعنى من جديد . . وفى الطريق . . اشترينا بالقرش . . شمعة .

في بيتا عندما تبثت الكراكيب التي تحت السرير ، وجدت عتلة
حديدية مبطلة وسنجة ميزان .

خباثت العتلة في رجل ينطلقون ، ولففت السنجة في ورقة ،
ورقفت على السطح أنظر ، حتى نزل الليل . كنت جزعا ،
ومثارا ، ورايت السماء السوداء شديدة البعد ومخوفة ، وكانت
النجوم تبصر خلالها وتأخذ في الارتعاش ، فأخذت أحاول
عدها .

- فيت . فيت . فيت . -

هكذا جاءتني الإشارة : صفارته الرفيعة الملحوسة . . عندما
سمعتها خطوت بحذر الى حافة السطح ، ونظرت الى أسفل .
كان هناك في الوسعاية أمام البيوت ملتقا بالظلمة ، ولم أميزه إلا
بشبح رأسه الكبير يتأرجح على قامته الربعة المدكوكة .
أعطيته الإشارة أنا الآخر :

- فيت . فيت . فيت . -

ونزلت اليه . . .

كانت الشمعة معه ، ومعه علبة كبريت جلدتها من بيتهم ،
ورأيت على كتفه جوالا مطويا . . عندما سأله عنه ، تحسسه
بهدهوء ، ومال على أذني يهيس :

.. وح غلاء ذهب .. ذهب في ذهب .. من ترب القبط ..
 خلفنا البيوت وراء ظهرنا ونحن نجتاز السومرية ، دون
 صوت .. الى الترب ..
 كنت أتلفت ورأى ، وكل نظرة الى شباك به ضوء كانت تساوى
 هدهدة قطعة من ارنيا ، في وشيش ملغز ، وظلمة تحلق
 بجناحيل مربعة ، ونحن نتوغل .. ونحن نتوغل ..

٤

دونا في الطريق حول تربنا : حياة المسلمين ، وفي العتمة شفت
 الترب الصغيرة بحدباتها المقصومة المظهور وشواهدنا
 النائية .. ، شفتها جمالا مسخوطة ساكنة .. حيث الحدبات
 سناماً كانت ، وكانت الشواهد رقايا ورؤسا تحجرت .. وشفت
 المدافق الكبيرة شياطين ضخاما تعتل الجمال المسخوطة ،
 والكافور والتخل المتمايل حولها شفت جنات ترقص مثلية لتيه
 الشياطين ..

وفي كل لحظة ، في كل لحظة ، كنت أتلفت مذعورا لاقبل صوت
 يصدر ، حاسيا أن عفرتنا سيطلع من بين القصور ويخطفني من
 ظهري ، فتسرع قدماي ، تسرع ، وأنعثر ، واقتررب من أبي
 الروس أتلمسه لعله يؤنسني ، لكنه يجمع في تحويقي رغم خوفه
 هو الآخر وارتعاشه .. كان يفقهه بافتعال ، ويصرخ منشدا :

« يا عفریت اطلع لنا

شدنا من شعرنا »

وكان أبو الروس خائفا ، ويترعش هو الآخر ، وإن أنكر .



وصلنا إلى سور « ترب القبط » . . .

توقفنا فلهث متواجهين ، وتترامق بصعوبة في العتمة ، ثم
توشوشنا ، وبدأنا نسلق . . . رفعته أولا على كتفي وكان ثقيلًا
كحجر ، ثم أخذت أدفعه من مؤخرته وعقبه وهو يسلك ، حتى
أصبح فوق السور . نام ببطء على السور ، وانثنى مجد ذراعاه لي ،
فصعدت بتعثر حتى لامست يدي يده ، وشلف .

ومن فوق السور ، هبطنا إلى الداخل . . .

عندما استقرت قدماي على الأرض حل الاستغراب بمكان الفزع
الذي اعتبرنا منذ اتفقنا أمام سبنا « ركس » ، والذي كنت أعتقد
له ضربات قلبي لتسرع مقدما .

استغربت !

كنت أتخيل « ترب القبط » خنية واسعة تقوم فيها بنايات عالية
من رخام ، يحوطها شجر ونخل وورد !

ربما استقرت هذه الصورة في ذهني بعد رؤيتي المتكررة لجنازات
القبط ، التي تختلف عن « الشهيد » الذي شيع به نحن المسلمون
موتانا . . . حيث بدلا من « الحشبة » المحمولة على الأكتاف ،

يكون صندوقا من الخشب الملمع تحمله سيارة سوداء منقوشة بالذهبي وعند كل ركن من أركان سقفها يقع تحت ملاك ذهبي طائر يجتاحين مذهبين أيضا .

استغرقت مستغربا وأنا أطوف بعيني ترب القبط . . رأيتها ، تماما ، مثل تربنا نحن المسلمين . . تماما ، رأيتها : مدافن كبيرة قليلة تشمخ ، وسط ركام التراب الواسعة . . لا فرق غير أن الشواهد تقوم بدلها الصليبان ، وحتى الصليبان : إما كبيرة مزخرفة وبعضها منور فوق المدافن الكبيرة ، أو صغيرة خالكة أكثرها مكدّر فوق التراب الصغيرة التي ليس حولها شجر ولا نخل ولا ورد . . بل تماما مثل ترب المسلمين الصغيرة ، ولصقها ، رأيت ذات الفسائل لثبات الصبار الداكن المعفر تلوح نابتة في العتمة .

« يا الله بله . . احنا مش جايين هنا علشان نقف نبرق لبعض »

قالها ، (ورعدني) أبو الروس ، قارتجفت ، وسرت أتبعه ، وهو يقول ، ونحوس .



توقفنا أمام مدفن كبير ، كان عاليا وجدراناه باردة وناعمة وله باب حديدى مصفح بفضيان من النيكل

أخذ أبو الروس يحاول إدارة الأكرة الكبيرة التي تهرب ، لكن يديه
كانتا تتزلقان . .

حاولت أنا ، فلم أفلق . .

حاول أبو الروس فسخ الباب بالعتلة ، ولم ينقطع
وحاولنا بالعتلة معا ، وئسنا .

جربنا مع أبواب مدافن كثيرة أخرى ، لكنها جميعا كانت موصلة
بأحكام ، وأكراتها تهرب وتتزلق عليها أيادنا ، وفي فرجاتها
الدقيقة كانت عتلتنا الحديدية المبططة تشل .

كانت العتلة تسقط منا على عتبات المدافن الكبيرة ، فنصدر
رئسا . . ، مخوفنا بتراجع خلفه صدى راق ، فخم ،
يرعب ، يأتي من داخل مبطن بالنحاس والرخام .

بدأ الخوف يفرقني ، فأتحت أهدس بتوسل في أذن أبي
الروس :

« يا الله ترجع يا عم . . أني مش عايز ذهب ولا نيلة .

لكنه كالمنا لم يسمع ، ساقني نحو التراب الصغيرة ، وعندنا
قرفص . . ، قرفص وراح يزحف على أربع ويتحسس القوّهات
المسدودة .

توقف فجأة عن الزحف ، وزعق يناديني :

« تعاله يله . . ذي مطربة . . نقدر نفتحها » .

كنت خائفا مما يحدث ، وخائفا أكثر لو أبدو جباناً لأبي الروس
فيضحي عند عيال الحنة ، فأتحت أناوله ما يطلب وقد سيطر
على .

« العتلة والسحجة ياله » .

وتناولته العتلة والسحجة ، فأخذ ينقب الفوهة المسدودة .

« شيل بضوافرك ياله » .

وأخذت أخش بأظافري كتلة من أسمنت ما زال مبتلا ، يتهاى ،
ويتكوم على الأرض .

« زبح ده ياله » .

وأزحت كومة الأسمنت الصغيرة .

أخذ أبو الروس بضرب برأس العتلة ، فسقط قالبا طوب في
الداخل ، وتكونت فتحة مظلمة أخذ يوسعها . . . يوسع ،
يوسع ، يوسع ، ثم زحف ودخل .

نشف عودى ، وتلححت وأنا أتابعه يخفى داخل التربة
الصغيرة .

« ولع الشمعة وتعال ياله » .

أشعلت عود (كيريت) ، انطفأ بفعل ارتعاشى ، وعوداً ثانياً ،
وثالثاً ، واشتعلت الشمعة . وعلى ضوء قطعة الذهب الصغيرة ،
رأيت الأرض الطينية زلقة كأنما ينشع أديم من ماتوا ، ورأيت
الصبار الداكن المعفر ، ولقمة مهروسة يجرها النمل نحو ثقب في
حداد التربة . زحفت ، ودخلت كأنما شئ ، غير نفس بحول .
كان سقف التربة يلمس الرأس ، وأطنا ، ومقنى . وبيا
بجفاء ، تبظ بين أجراته المتأكلة كتل غليظة من المونة .

وكان أبو الروس جالساً على ركبتيه ، واضعاً يديه على ظهر تابوت
خشبي متفسخ الألواح ، ودهانه الأسود كان مقشوراً وكالحمأ .

« هات العتلة ياله » .

وبعد مرتعة ناولت العتلة لأبي الروس .

« يا يا ااا » .

صرخت بلا شعور ، إذ . . في قعر الثابت رأيت جثة حديثة
لرجل نحيف ، في قميص من الدمور وينطلون رمادي قديم من
قباض « جبردين العسكري » . . قميص عليه بقع « بوية » . .
قميص نقاش ، وينطلون نقاش واسع وثنية الرجل كانت مفردة
لتنطول .

وجه الرجل كان شاحبا بزرقة ، ولحيته نصف مخلوقة بنيت فيها
شعر أشيب . . كان ممعنا عينيه في تعاسة وبدأ لي زعلان ،
وبقلبه حسرة .

عندما رفع أبو الروس يده الرجل يبحث عن « الخواتم
الذهب » ، رأيت يد الرجل عريانة ومعظمة وأطراف الأصابع
مكدومة ، وحول الأظافر كانت رواسب الخير تنوغل داخله في
الجلد المتهرى .

فتش أبو الروس في جيوب الرجل ، وكانت خالية ، فغمغم ،
وأخذ يحرقني بنظرة مخلولة ، ثم لطمني . . لطمني وهو يصرف
عن أسنانه ، ويقول :

« وشك نحس ياله » .

وكأنما كنت في انظار اللطمة . .

التقطت العتلة ، وضربته بها على بوزة فالفجر دماً خامقاً ،
وطوت أهرب . . خرجت من التربة ، وقطعت « ثوب القبط » ،
وقفزت السور ، ثم « ثوب المسلمين » ، والوسعاية . . .

كأنما كل هذا في غمضة عين . . ، غمضة عين كنت أسمع
حلالها دبيب قدمي أبي الروس يلحقني .

٧

وصلت إلى بيتنا ، ودخلت ، ثم رددت الباب بظهري حتى لا
يفتحه . .
وأخذ يذل الصغير ، يومها ، يذوب بلوعة ، في موجة من بكاء
حارق . . لم أكن أعرف كنهه .
والأمر الغريب أنه كلما كان يغلوبي موج البكاء ، كنت لا أكره أبا
الروس ، بل أشتاق إلى أبي لويان حالا لأنعلق برقبتة . . الصق
عدي بذقنه الخشنة ، ولا أتركه أبدا يغيب .

الموت يضحك



يوم م م م . . . وبدأ أن شيئا ما قد انغير ، أو عجل الأقل
 قلت القفط صفيحة القمامة ونجس الصوت في هدأة متصف
 الليل . وكان حين هو البقطان الوحيد يقرأ مظلا برأسه ويديه
 من تحت اللحاف القديم الملتصع الخواف بالسواد . كان البرد
 شديداً بين جدران البيت شبه العارية والرقبية البلاط المخور
 والسقف متساقط الطلاء . كانت مثانة حين توجده ومع ذلك
 يؤجل الذهاب إلى دورة المياه دائماً إلى اللحظة التالية . وقرر أنه
 عندما يذهب إلى الدورة سيرى ماذا حدث وسيعدل صفيحة
 القمامة ويطرده القفط ثم يغلق باب الشقة . لكن صوت أنه إلى
 من الحجرة المجاورة : « يا مصطفى أيه اللي وقع
 يا مصطفى ؟ » كانت تنافى أحاء الأصغر . يتأكد مرة

أخرى ، بعد مئات المرات ، أن هذه المرأة النحيفة الفلقة
لا تنسى أبداً . لو عمل الأقل تسمع كل شيء وهي نائمة .
وعاجل بالرد حتى يعيدها إلى نومها الخفيف : « مفيش حاجة
يا امه . دى القطط . نامى . نامى ، لكنه وهو يرد هذه
الكلمات شعر بشكل غامض أن الصوت كان أضخم من صوت
صفحة قمامة توقعها القطط في منتصف الليل . وكانت مثاته قد
بدأت تؤلمه من جديد . بعد أن استراحت متعددة لتأخذ أقصى
سعة لها . فقرر دفعة واحدة أن ينهض لينهى كل شيء . هذا
الأم ، وبري كيف أجدت صفحة القمامة كل هذا الدوي .

تفرض عنه دفع الحاف ، ومتقلصاً وثب على البلاط البارد ثم
أسرع على أطراف أصابع قدميه وكعبيه الملسوعين بالبرد يلتقط
شيئا ينتعله ، ومقتظفاً فتح باب الحجرة . . رأى الظلمة في
الصاله ثم أحس بتغيير ما في النور القادم من جهة الحمام
والمطبخ . في البداية شعر بشيء يضائق أنفاسه ثم يقن من أن
النور القادم من جهة الحمام والمطبخ مثقل بالغبار . عطا بحرص
غير يجرى وفي حلق طريقة الحمام والمطبخ لا يتمكن من رؤية
شيء . كان المكان يعبق بالتراب . كأن قبلة سقطت عليه لتواها
وأثارت كل هذا التراب الذي كان يدوم ببطء في فراخ المكان
الصغير بين الجدران التي بدت أقدم من أن تكون هي جدران
بينهم الذي يعرفه . ثم وكأنه يعتاد الرؤية في قلب زوبعة
التراب . مثلما يعتاد المرة شيئاً فشيئاً الإبصار في الظلمة ، رأى
كومة الأنقاض على بعد خطوة من قدميه ورفع وجهه ببطء .

بحسرة ذاهلة كمن يتأكد من شيء مخيف يوقن في وجوده ،
 وأبصر حديد سقف المكان غارياً وصدئاً ، وعميقاً كشبكة من
 حيوط واهية خلفها سماء الليل . . رأى السواد الرمادي لليل
 الشتاء المثلج بلا نجوم من سقف الحمام والطرفة والمطبخ .
 وأيقن أن البيت كله سينهار الآن . واستغرب هذا الهدوء الهامد
 الذي يثقل جسمه ويجعله يتراجع ببطء بظهره نحو الصلاة . .
 خطوة خطوة ، ومع كل خطوة يتلمس يرد الشيطان بقربه
 والأشياء ، وإرادة غريزية يوقد الأنوار وهو يتراجع ، نور
 الطرفة ، نور الصلاة الصغير ، نور الصلاة الكبير ، وكان الغبار
 يستنير الآن وقد ملأ البيت كله . ونجح لا إرادى مفاجئ . وجد
 نفسه يصفق وينادي : « اصحوا يا حلوتين . الموت وحصل »



وقفوا جميعاً في الصلاة بأقدام عارية ، أو بقدم عارية وأخرى
 وجدت ما لتلقطه في طريقها المرتبك . دحكوا عيونهم من شدة
 تهيج الغبار للمحققون في البداية وعطشوا وتحشروا مرات . ثم
 ندأوا يعتادون التنفس في هذا الوضع بينما كان التراب نفسه يحمده
 وينضج كل شيء . في أول الأمر استيقظ مصطفى بعيونه
 المستغربة المفروعة وفمه الذي يصنع علامة استفهام تثير الروح
 قبل أن تدرجها أية إجابة . ثم جاءت من ظلام عرقه الواجبة
 عناق يقميص نومها ومندبل الرأس . ثم استيقظت الأم المفروعة
 دائماً ، والتي كانت تسمع لسنين طويلة صوت الخطر المنذر في

الخدران والسقف ينمطى بمطقطات خافتة لا يستقبلها الا جهاز
عصبي شديد التوتر مثل جهازها . وفي النهاية أخذ الأب العجوز
يبرز ببطء من ظلمة عرقته الصغيرة . محبباً وبأساً ويخرج نصفه
المثللول بتعثر . وبدأ حسين كالمسترو بينهم . كأنه يستخرج
منهم نعمة خفية ومثابة للفقير مع ذلك . وبشكل ملس لم يكن
هو نفسه يظن أنه مهباله . وكان مضطرباً أول من استجاب . .

فما أن برز بفرعه المفرج لمن يراه حتى يادعه حسين : « آيه يا . .
البت بيتي . بيتا بيتي . فيها آيه في ؟ » . وكانت عفاف
تخرجها الفطري مهابة لتلقى الإشارة حتى قبل صدورها . قالت
بصوتها الفصحى الخفيض والمسموع مع ذلك : « الله . . ودا
كلام يا بيتا ؟ ودا وقته ؟ ودا أنا امتحانات يا أخي . وعنايزين
بنام . . الأم وحدها هي التي بدت أكثر ترويعاً لكنها ما لبثت أن
بدأت في الأقسام رغم رعبها الذي لم يتلاشى . أما الأب فقد كان
في تفكك الشيخة المكرة السهل جاهزاً على الفور للاستجابة
للمثير . . أخذ يصحك ضحك نصلب شرايين الملح المرتج .
هذا ، الذي يبدو كأنه لا يقاوم . كأنه طفل عجوز يندفعه
شخص ما لا يرى . أخذ يصحك وحسين يقوده في هذه
اللحظة . . يسلم عليه الآن بجديّة ضاحكة وأهمية مضحكة
الخطورة : « سلامو عليكم يا معلم . خلينا لشوفك هناك .
هناك شاب طبعاً ، شاب على طول . . وسمع صوت عفاف
وهي تقلب القاف كافاً وتعني : « إلى اللكاه . يا أصدكائي » .
وبدوا رغم عددهم القليل كأنهم زحام من الشر في الصلاة

العابقة بالعبارة إذ كانوا في حراك دائم وصحك وجلبة . كانوا
حسبهم يتبادلون السلام والتوديع ويعودون إلى ذلك من جديد
كأنهم يشعرون في حلبة ماء ، سلامو عليكم يا أمه . ابني جيب
عللة اللونجية الناشقة معاكى وكام عقد باميه . . حاجه بيلاش
كده . . المعلم سبقنا على حنة الخلد طبعاً واحنا نحصله .
« ما تعبش علينا » . وكانت جليتهم تعلو ، تعلو حتى أنهم فجأة
سكنوا .



وجها لضع دقائق . . بضع دقائق في آخر الليل . وفي نور
الضالة الغامر . سمعوا فيها كل شيء وراوا . . سمعوا طقطقة
الحدران مع مرور اللوريات ذات المقطورات في الشارع
العمومي ، واحسوا بالرجة . . كأن البيت يعوم فعلاً في بركة من
المياه الجوفية أو مياه المجارى . رأوا تشرح السقف مربعات
ومستطيلات واسعة يرسمها صعداً الحديد في بياض المصيص
المتقادم المصفر . كل السقف . . في الغرف الست التي كانت
ثلاثاً فسمت بحدران ربع علوية لتحمل السقف المنقر بالانهيار
منذ عشر سنوات خلت ، لكنه الآن يبدأ الانهيار بالفعل . فعلها
في الحمام والمطبخ منذ لحظات والبطية تأتي . وقد تكون دفعة
واحدة ، حيث لا إمكانية لديهم ، أصغر إمكانية ، لمجرد
ترميمه . . قالت الأم : « تنزل الشارع يا أولاد » . ولابد أنهم
تحلوا منظرهم في الشارع . . عشة من الملاءات والبساطين

القديمة لصق صور الجراج العصوي . . الخلل والبوتاجاز
والثلاجة أمام الباب . والكتب فوق الثلاجة . والملابس على
مشاجب من مسامير يدقونها في الحائط بجانبهم . كانت عفاف
قد ذهبت وفتحت باب البلكونة ولقعتهم هبة من البرد عرفوا منها
صقيع الشارع قبل أن تاتي عفاف وتفتح الضحك من جديد :
« حاجة الأسكا خالص . حاجة آخر الأسكا . وتنشئ
كمان » . ودخل مصطفى في غط الضحك : « آيه انا الي احنا
فيه ده ؟ » . وكانما ايقظت كلمة « احنا » كوامن نفس الأم مزمنة
الحزن فانفجرت بكى . وراحوا يسطرونها بمحاولات
الاضحك : « آية يا حاجة . صعبان عليكى نسي كتابتك » .

وجرى مصطفى بساقيه الطويلتين وأحضر صندوق الكناكيت من
الثور الجوانى مردداً « والله ما يحصل . والله ما يحصل » ،
والتحنى حين على الصندوق المغطى بخرقة قديمة حيث وضعه
مصطفى على كنية الصالة . وكانت الكناكيت تصوصو بتسارع
مروعة من بغنة ايقاظها فجأة . وقال حين سامعة ؟ يقول :
« سوا . سوا . سوا . سوا » . وأرقت عفاف بخطابية مضحكة
وهي تشد قرطتها على جبينها حتى العينين « وفاء . بالوفاء .
وفاء الحيوان يا بلي آدم » . وبدأ للحظة أن وجه الأب يتلون مع
ايقاع الكلام . يضحك عندما يرى ويسمع الضحك وينمحي
ضحكه عندما يرى الوجوم . بات هامشياً إلى حد مومع بعد أن
استيقظ من غيبوبة جلطة المخ المفاجئة ، منذ سنوات . الزوى
ساكناً وأنزوت معه كفاية البيت . وها هو البيت يرتج مع مرور

اللوريات الثقيلة في الشارع العمومي . كانت المياه تهتر في
 الدورق الزجاجي الموضوع على طرايزة الصالة ، ولاحظت الأم
 ذلك بانقباض وهي توشك على البكاء : « هالموت يا اولاد . دي
 اليه بتهز كأن حد بيرجها » . لكن حين عاد يمسك بخيط
 الضحك وهو يميل على الدورق ، ويلبس فوهته ناظراً إلى الماء
 المرتج فيه كأنه يكلمه : « هز ياوز جناحك هز . احنا اثنين
 عايشين في العز » . لكن عفاف عفت بتحفظ كاتم للضحك :
 « احنا خمسة يا أستاذ من فضلك . خمسة في عين اللي ما يقبل
 على النبي آه خمسة » . ومسى الرقم سطح ذاكرة الأب الواهة .
 ذاكرة تصلب الشرايين المبكر . وقال بحماس من عثر على كنز
 « خمسة . احنا خمسة . نروح كلنا كده من طلعة النهار للمحافظ
 يشوف لنا حل ، وصاح مصطفى بصوته الذي لا يعرف النعمة
 المظلوية أحياناً ويبدو أعلى مما يجب « معل . لم . والله معلم
 تدبل الورقة وتفضل رجعتها فيها صحيح . أبوه نروح كلنا كده
 بربطة المعلم للمحافظ من طلعة النهار . دا إذا طلع علينا النهار »
 وقالت عفاف « طابور . نروح طابور » . وأضاف حين لمسته
 الأخيرة : « ونقول له احنا ما تنفعناش شقة المساكن الشعبية اللي
 مقدمين عليها من عشر سنين . احنا عايزين قبالا في الهرم . أو
 طريق المعادي من فضلك »



كان الليل يمض ببطء شديد ، ثقل السواد ، عندما أورا إلى
 أسرهم أخيراً . « ومع ذلك لم يخلع النوم في التسلل إلى مخادعهم

اللياسة . . المراتب القديمة المهروسة تحت جنوبهم تكساد تصل
أضلاعهم بالزواج الأسرة الخشبية المتباعدة . . والوسائد تصلبت
من بعد التوحيد عشر سن خلث . تركوا نور الحياء وحده .
ومع العتمة لم يناموا . . برز صوت مصطفى المرتفع أولاً . أتيا
من نصف غرفة قرب المدخل : « اللقا يوم اللقا يا جلوس » .
وردت عفاف : « كل واحد يبعث عنوانه للنش لما يوصل » .

واخذوا يتحادثون بأصوات مرتفعة من مراقدهم . وهر الظلام
الذي يرمده غبار السقف المتهار . ثم إنهم بدأوا يتوادعون :
« سلامو عليكم نبي » . قال مصطفى . وردت عفاف : « باني
باني » وقال حسين : « نشوفكم بخير هناك » . وبدأ أن البيت
يسكن مسكونه المريب قبيل الاغيار . أحس حسين بأن سقف
الغرفة سيهار عليه . وشعر بارتباك المرحوب الذي يسدد إليه
أحدهم فوهة بندقية معمرة بالأنحاء غيبه . وجد ثقب يغطي
ويسرع بشد اللحاف على وجهه متفكراً في أن السقف عندما يتهار
سيدخل التراب والرمل في عيبه وحلقه . وربما أصابت كتلة
خرسانية رأسه أو هذه المنطقة الحساسة من جسده ، حيث يمكن
أن يعيش مشلولاً أو عاجزاً . تكور على نفسه قائماً على الجنب تحت
الغطاء مفضلاً الموت الكامل بالاختناق عن الحياة بمعاهة
مستدجمة . وفكر في الآخرين . . لماذا لا ينقل إليهم فكرته هذه ؟
ونخرج برأسه من تحت الغطاء . وتنادى : « كل واحد يغطي
نفسه كويس علشان يغطي على طول بدل ما تطول معاه
وماتبقاش طريقة » . وأتى صوت عفاف مقلداً صوت الطفل في

ذلك الاعلان التليقريوى : « كنت ح أقوها » . وامسك صوت
مصطفى الذى أطلقه فى شكل زمارة : « وأنا كما اال » .
وتعالى صوت الضحك مرة أخرى ، لكن العجوزين لم يبتعدا عنها
صوت . . أى صوت فى هذه الجلية ١٩



كان حين يعمل صندوق الكناكيت ويتجه به فى أثر الضوء
الخفيف المغير إلى حجرة الأم إذ ظل يحافيه النوم ، وبور الصبح
يشاغل ولا يحى . وهو يوقن فى كونها لم تنم . وإنما ملتصقة على
نفسها تبكى كأنه صوت البكاء . يكاؤها هذا الحارق والمحرق
لن يسمعه أو يراه . يقول لها مضاحكاً : « عدى يا سنى
كناكيتك . مش عايزين يناموا ويقولوا إلا نروح معاها » . لكنه
فى نور الخفيف وجد سريرها خالياً . وفى حجرة الأب كان
سريره خالياً أيضاً . كاد حين يزعم نادياً مصطفى وعذاف
« العواجز عابولوا وهرلوا بأعبال » . لكنه وجد نفسه يقرقش
وينظر بتوجس تحت حافة الملاءة المسدلة على السرير القديم
العائى . وماندهاش لا يصدق وتحمل وارثاك مهن وتراجع فى
نفس الوقت حتى كاد أن يتعثر ويوقع صندوق الكناكيت الذى
تعالى صوتهما من رجة العثرة . وكانت الخرقه قد انزلت عن
فوهة الصندوق وماك حراك الكائنات الصغيرة ليصوتية الفول
تشغى مضطربة فى رجة الصندوق المعتم . فقال عليها بهمس :
س . س . س . سكووت . ع كاه . لكنه فوجئ

بصوت عفاف مستعطفة : « يتكلم من عندك يا أيتها » . . .
« ساكلم الكناكيت يا بنته » . وجاء صوت مصطفى : « آه
الكناكيت . صحيح كناكيت . رينا بديك الصيحة يا عم » .
وفي هذه المرة بدا . وكانهم يكتمون صوت الضحك

سائقة « ترولى »



لأن عينيه كانتا سوداوين وواسعتين كما يليق بعبود عزية ،
وإن الدهشة فيها كانت مذهشة وظرفية ، وهي لم تكن مجرد
سواقة ترولى ، ترولى عادى ، بل ترولى كبير بعزيتين
مفصلتين ، ومائة وعشرين مقعداً ، وستة أبواب مؤنثة ،
وعشرات العدادات في لوحة القيادة أمامها ، وميكروفون كانت
ترفعه يراها من فوق مشحون بحائنها ، وتذيع عند فتح
الأبواب :
« استهوا ، الأبواب الآن تفتح ، هذه محطة كذا ، وعند
مغلقها : « احبسوا ، الأبواب الآن تغلق ، المحطة القادمة
كذا ، وكان صوتها لطيفاً حبه في أول الأمر مسجلاً وبداًع
بطريقة إلكترونيكية مع التحرك والوقوفات ، وظل يحبه كذلك
حتى بعد أن عرف - لدهشته البكر - سوجود نساء يسفن

التزولليات في هذا العالم . . لكنه أبصرهن من قبل نساء
كالرجال . . أسطوانات من نوع آخر : جسيمات وخصيات
ولا شيء يدكر بأنوثتهن غير حقائب اليد النسائية التي يضعنها فوق
« النابله » أو يعلقنها بجانبهن في كتف « كرسى السواق » ،
ويستعملنها في أذرعهن الثقيلة . كما تعمل الإناث . وهن يعطن عند
المحطات الأخيرة .

وظل بحسب صوتها اللطيف مسجلاً وهو لا يتيناها من مقعده
وسط المقاعد ، وهي وراء حاجز السواق الحاجب للرؤية رغم
كونه من الزجاج . زجاج « القويمه » الغامق اللامع الذي
تطوحت عبره مرة يد وردية بيضاء . يد اثوية رقيقة الأصابع
ومزوقة بطلاء أظافر برتقالي وسوار تهر في محيطه قلوب ذهبية
منمنمة . لمح اهزازاتها الحافظة ، فاستخطف ، وما أن خلا
المقعد الأول في اليمين حتى أسرع بجعله . وأسرعحت تحمل مرآة
عينية المدهشني المدهشة صورة سواقه تزوللي صغيرة حلوة ،
تسوق « لمرولليا » كبير أعبر شوارع كبيرة تنوال تقاطعاتها ، تنوال
الإشارات ، وتنوال المحطات . لكنه نسي هذه المرة أن يهبط في
محطته المعتادة . وهي نسي أن تظل ناظرة أمامها إلى الدنيا عبر
الزجاج الواسع العريض كما ينبغي ، وتنتاسي أن تنبهه إلى كون
المقعد الذي يجتله واحداً من مقاعد كبار السن ومصطحي
الأطفال ، وتلفت إلى الخلف مرآت حافظة ، تختلف بسماوية
عينها حائل الزرقة دهنه مدهشة وطريقة في عيني سوداوين
واسعتين مثلها تحكي عن عيون عربية .

ولأن الصدفة لا تأتي في الغالب صدفة ، فقامها وحدا نفسها
 عبران نفس الغاية الصغيرة في قلب المدينة عدة مرات . في
 صمت أول لا يخلدته إلا صوت اقدامها ترزق في فوق الثلج .
 الثلج الأبيض يغطي مصاعته أرض الغاية وتظل تحترقه جذوع
 أشجار الحور السوداء والبنولا الكلكية المنقطة . . آلاف الأشجار
 العارية أغصانها من الأوراق واقفة في بياض الثلج ، وهما بين
 الأشجار يتوقفان . ينطلق فوق هامات الشجر العنابي وعلى
 صفحة السماء مرب حمام بدا بتسجياً ، ثم مرب عقاب قطيفية
 السوداء تعفوق . ولم تكن أصواتها العجبة الخفقاء هي التي
 اضحكتك في لحظة لا يحور فيها الضحك . لقد ظلت عبارة ، أنا
 الآن مع أسطر سوق ثروللي ، تترجم في داخله قبالبه
 الضحك . يحاول كنه لكن بغليه الضحك . فتدعر . . تسع
 عباها الزرقاوان ، وتتسع خطواتها وهي تراجع مبتعدة عنه تردد
 كاذب . كاذب . كاذب . ثم استدارت تجرى . هي تجرى وهو
 بلاحقها بندااته . . تقع النداءات على الثلج وتبعق قدميه
 الثلج . لكن الثلج ببسط لقدميها ، فيتوقف . . يرفق فرارها
 الساكن بأسف . وتطامه حسرة أنه ربما يكون قد أصاب غزالة .
 غزالة ثلج كان يثق من حماها وهي نفر أمامه في البيضاء
 مبتعدة . فهل يتسلم لفقدان غزالة على هذا النحو ؟

الثروللي تضطرب حركته . . كان يفقد شيئاً من نعومة سيره ، ونعومة
 الدوران والوقوفان . بدا عصبياً وأخذ الركاب يستطلعون
 بدعراً إلى الأمام نحو السائقة التي توقفت بغتة . برزت من وراء

حاجز الزجاج القائم الملتصع . واتجهت إلى الراكب الذي اعتادوه من قبل يجلس في المقعد الأول عند اليمن . يدها الوردية الصغيرة أخذت تلوح أمام عينيه السوداوين المسعثرين بدهشة أخرى . دهشة مأخوذة بالحدة التي في التلويح . والحدة التي في الأمر تصرخ به في وجهه : « عد إلى الخلف الآن أيها السيد . من فضلك عد إلى الخلف » . وكأن لطفة الصفته بمضاطبي قوته مائة وعشرين صوتاً راحت تجذبه إلى الخلف مرودة : « عد إلى الخلف أيها السيد . عد إلى الخلف . عد إلى الخلف » .

وكان آخر الركاب الذين يهبطون في المحطة الأخيرة . تلكا لحظة قرب مقعدها واستدار ، ومال عليها يهمس سائلاً : « هل سافلت في الخلف طويلاً ليمض كل شيء على ما يرام ؟ » لكنها لم ترد ، ولم ترد . . .

هل هي آخر تحية للورد ؟



ومع أول خطواته داخل ردهات المعهد الرخامية الصقيلة التي
عاشرها طويلاً أحس بأن شيئاً ما قد تغير ، وأنه لابد لا بدريه
صار في قلب التغير . لماذا حدث خلال أيام ؟ وماذا حدث منه
لينظروا اليه هكذا ؟ لقد كانت اجازة أول مايو طويلة نسبياً إذ
والحق أول مايو يوم خميس ، ثم جاء الجمعة ليكون ثاني أيام
العيد ، ومن بعد اليومين جاء السبت والأحد وهما يوماً العطلة
الأسبوعية المعتادة . أربعة أيام ، لم يحن بتغيير ما خلالها . . في
حياته ولا في حياة الشوارع ولا حياة السكن الطلائ الذي يعيش
فيه . صحيح أنه عرف بالخبير ، وكان يسمع الاذاعات . .
بدهش لهذا الحريق الذي يشتعل في إذاعات أوروبا العربية
وأمریکا ، وبسريه في الحذر الإعلامي السوفيتي . لكنه قبل

الآن لم يكن يحسب أن شيئاً ما قد تغير . في نهاية ابريل كان
 النعال الاذاعات قد بلغ الذروة . . عن كارثة حريق محطة
 « تشرنوبل » الكهرو قوية ، عن السحابة الذرية التي حملتها
 الرياح إلى أوروبا . وعن المطر الملوث بالاشعاع الذي تساقط هنا
 وهناك . وعن الاشعاع الذي طال « كيف » القريبة من
 تشرنوبل فأقرب قريها الحياة . وكان يعجب كيف أنه في « كيف »
 ولا يحس بتغير ما . . المدينة الحديثة ما زالت كما هي . . حضرة
 الربيع التي تفحرت كأنما فحة في كل مكان . . زهور السرير
 البيضاء العطرة . وعناقيد زهورات الكستناء . وتزهج شجر
 الطوبال والبتولا بالحضرة . . الدبير « المسيح المثل » بقوة المياه
 المستقطعة من إقفاء الشتاء . والناس الذين تسهم الطبيعة
 بمسح بشر ينزهون في حديقة . ثم احتفالات أول مايو نفسها
 حيث كانت الاذاعات تتأجج بذكر الكارثة الذرية . بينما كان كل
 شيء « هنا » في موقع الكارثة التي يتحدثون عنها لا يتى . عن
 تغير ما . . أفق تغير . احتفلوا بأول مايو مثلاً كانوا يحتفلون من
 قبل . . قلب المدينة الذي جلت عنه المركبات لمشي الناس في
 عرض الشوارع . دقات التجمعات الشرية التي نصب في
 شارع « الكريشيانيك » المكسوة شرفات مبانيه بتسليلات
 القماش الأحمر في لون التوليب ، وموسيقى الجيش التي تصلح
 في كل مكان . وصوت الكورس الرجال المتناغم بسحر
 النحاس . قوة هارمونية كانت تخفق في سماء الشارع الكبير
 وتتخلله بهجة جسورة حتى أنه صار يتوالب في مشيه ويحرك

ذراعيه مثل ما يسترو مع ايقاع المارشات والأناشيد . . . البتات
 بالفساتين الأوكرانية الخفيفة ذات الاطراف المشغولة حوافها
 بفرح ملون ومنعم ، وأكاليل الزهر التي يتوجن بهار دوسهن .
 الضحك الجميل والذئع والغزل المباح . نهر الساك الدفاق بالبشر ،
 والأرضية المثقلة بالحمام وزهو الهدباء والخضرة .
 الأطفال فوق أكتاف الآباء والبالونات الكبيرة المرطوفة . قبونكات
 الشيقون الأبيض الكبيرة في شعر البنات الصغيرات ، ويريق
 الميداليات والأوسمة على صدور الأبطال القدامى الذين خرجوا
 يرصعون على مهل مواكب الجموع المتحركة في اتجاه ميدان النصر
 حيث سيفتح العيد . حكام الجمهورية على منصة الميدان وفي
 القلب محتشد قطاعات موسيقى الجيش ولحرق الشعب . وتلقي
 الساعات مائة برنينها كل القضاة . ثم يهتف المذيع بنحية : أول
 مايو ، و . . . أورا ! . . . تتصاعد من حناجر المحتشدين الذين
 يرفعون أيادهم والقبعات والمناديل مع الصيحة المنهقة . ويعلن
 العيد . . . الدوران الخرافي للتورات الأوكرانية على قدود البنات
 الساقصات والتسائب العفى لقوائير الرجال ذوي القمصان
 المزركشة والنطاقات والاحذية الطويلة . مقطوعات لا تعرف
 الجهامة ، وأطفال ورد الحمر خدودهم فكأنها تشتعل . بالونات
 تعلق وتشر بتخاصرون مبرح . وهتاف لا ينقطع مع كل دفقة
 بشرية . أورا ! . . . كان يترجمها هانقا مع الحائزين كطفل مصري
 في مولد : هيه . . . فيشعر بمرح اللحظة الصبانية . ويتماهى
 فيها بلذة . . . أورا ! . . . هيه . . . فهل كان كل ذلك مجرد مظهر
 لشيء ما يخفيه القلب السوفيتي الذي يجيد الكتمان ؟ أم ماذا ؟

ماذا حدث ؟ هل ثمة شيء قد تغير في خلال أيام ؟ ولماذا يعاملونه هكذا ؟ المتأوب العجوز وراء مكتبه عند المدخل لم يضحكه ويضحك كعادته عندما يراه ، لم يقل له هاتفاً بالباط ككل مرة : « السلام عليكم » ، بل تنهد في أسى ، وهر رأسه بإيماءة فيها من العتاب أكثر مما فيها من تحية . ثم إنهم كانوا يتوقعون في الردهات ويتابعونه بعيونهم للمحطة قبل أن يتجهوا إلى غرابية مسلكهم ويعاودون سيرهم من جديد . وفي ظاهور الأسانسير التفتوا إليه معاً حتى بدا كأنهم يلتفتون بأمر خفى صدر إليهم في لحظة واحدة . وفي صمت الصعود الكئوم لغرفة المصعد جوزية الحسدان خافضة الضوء فكسر في إنها الآن ، استأنسه ، « بلينا بتروقنا » ، في قاعة اللغة الرومية تنتظره ليبدأ الدرس . مثلما في كل مرة وحدها في الغرفة الكبيرة ، بملايسها الرهيبة ، وهدهود جنة في الخامسة والأربعين . نظارة القراءة على الطاولة الصفيفة ، واستبقاها الأمومي . والحديث الذي يبدأ بينهما ككل مرة في أعقاب العطلات . عن صحته ومعنوياته عما إذا كان قد استمتع بأيام العطلة أم لا . وقرر أن يسألها هو هذه المرة .



أوشك أن يتراجع ويغلق الباب حاسباً أنه أخطأ غرفتها إذ صدمه مرأى هذا العدد الكبير من البسات حول الطاولة ، والوجوه التي التفتت إليه كأنها كانت في انتظاره . لكنها كانت هناك . لينابتروقنا . في مكانها المعتاد على الطاولة . ووقع في حرج

للمحظة ساد خلالها الصمت . ثم انتبه إلى أنه هو الذي ينبغي
 عليه أن يلقى التحية . « تحياتي » فأما وسمع ردود التحية الخافتة
 منهم . وكان هناك مقعدان خاليان يقربه حول الطاولة . سحب
 أحدهما وخلع « الجاكت » كما يفعل في كل مرة وألبسه لظهر
 المقعد ، وعلق الهاندباغ في كتف المقعد الآخر . وكان يجلس في
 بطة . كل هذا وهو لا يدبر وجهه المدهوش عنهم . كانت هناك
 نائبان مدرسة الانجليزية الخنوة الضحوك التي كانت كلما رآته
 مقبلاً تهف بسرعة افتقاد عذبة ونشقة : « أوه .. مو .. خاليد »
 لم تهف كعادتها ولم يتسم وجهها ككل مرة ، بل بدت شاحبة
 وصامتة وحزينة . وكانت هناك الكيانا مدرسة الفرنسية وميرا
 سلاف والونيا والكسندرا وناتاشا وإيرينا . . كل مدرسات قسم
 اللغات بالمعهد كن على طاولة « بلينا بروفنا » ينظرون إليه بعيون
 فيها أسمى وحزن وعطيف مزاولة ما ، ويداً مرتبكاً وحاول أن يتكلم
 أن يسأل ما الخبر ؟ لكنه غمغم وفرك يديه خيرة ثم سمع صوت
 استاذته وإهناً : « محمد .. متى مسافر ؟ » « أسافر ؟ » .

سأل بدعشة واستغراب فيما كان الصمت سائداً ورأى عمر زجاج
 النافذة العريضة في آخر الغرفة سحب الربيع المتقلب الفاتحة
 قرحل .. يسافر ؟ ! « لماذا يا بلينا بروفنا ؟ » . « لأن كل
 الأجانب يرحلون عن كيبف » . وتخير ماذا يقول . إنه لم يفكر في
 السفر الآن أبداً . لماذا يسافر ؟ ! لقد سمع أن الطلاب الانجليز
 والفرنسيين سافروا . استدعتهم سفارات بلادهم وعادوا خوفاً
 من خطر « الاشعاع » وظل يضحك عندما سمع ذلك . ليس

لأنه يوقن بأن لا خطر هناك . ليس لأنه لا يصدق وجود هذا
الاشعاع . بل لمجرد الاحساس بأنه لن يفسد شيئاً على أسوأ
الفروض : سموت بالسرطان بعد ثلاث سنوات ؟ جميل . .

سموت مبكر أفضل من شر الأمرين ، شيخوخة آتية مع فقر
لا ريب فيه . مريض بالعقم ؟ حساً . . ولمن يجب
أطفالاً ؟ . . للفقر في بلاد التي لا يملك فيها مجرد غرفة على
سطح للسكنى ؟ أم للعربة التي لم تعد . في عربها أو شرقها . مهما
كانت . تحمل الغرباء ؟ . سموت ؟ هذا جميل . عقم ؟ هذا
أجمل . كان يردد ذلك كلما سمع في الأذاعات والاشاعات نأ عن
آخر تطورات الكارثة الخفية ، والرهب الذي لا يبين . وكان
بضحك يصدق لم يصدق أنه أخذ . لكنه لم يقل هذا ولم يضحك
وهو يجيب على سؤال أستاذته : « لن أسافر يا يلينا بتروفنا . ولماذا
أسافر ؟ » وفتح كفيه أمامه تساوياً وحيرة أبيض الحنوط قد
تسلل إلى هذه القلوب الصبورة أخيراً ؟ أنكون ضوضاء الأذاعات
الموجهة قد أثقلت هذه الأعصاب المثبة بالبرود والتؤدة . أم يكون
الحنوط قد صار لازماً بيننا هو مثلها وصفه أحد الأصدقاء وهو
يتكلم عن أبناء العالم الثالث عموماً . . يدرسون العلم ويفهمونه
لكنهم لا يحسون حقيقة به . . لا يفرحون به ولا يحزنون . لأنهم
يساطة لا يعيشون به أو فيه . . حتى لو كانوا يستهلكون بعض
تطبيقاته . لكنه رغم ذلك كله لا يستطيع أن يكره نفسه على
تصديق ما لا يراه . وكان لا يرى أمامه غير عشرة وجوه نسائية
تتطلع إليه في غير تصديق أنه لن يسافر . كالآخرين . هل يقول

هم ضاحكاً بمرارة أنه لن يسافر لأنه من بشرية أخرى غير
 الانجليز والفرنسيين . . بشرية لا يؤثر فيها ما لا تراه ولا تسمعه
 ولا تلمسه ولا تذوقه أو تشمه . أم ماذا يقول ؟ . ووجد نفسه
 يندفع في القول : « لا يوجد شيء غريب فلما لن أسافر .
 لا يوجد أي خطر . . وسمع في خفوت صوت تيانا ، تسأل :
 « بقينا يا محمد ؟ » . كان قد سمع عن ارتحال الباحصات
 والسيارات التي لا تنقطع حركتها على طريق تشرونيل . . عن
 الآلاف الذين يهجرون من دائرة عشرات الكيلومترات من حول
 المفاعل . عن تلوث المياه والقطاعها في منتصف الليل . وعن
 نقلها إلى مصادر المياه الجوفية إذ لم تنقطع . عن خطة لإخلاء
 المدينة . وعن خطة أخرى لإحلالها من الأطفال فقط . عن
 إطفاء الحريق ، وعن استمراره . وعن انفجار رهيب سيحدث
 يوم ١١ مايو حيث ينتهي كل شيء وينزل الناس تحت الأرض .
 لكنه فعلاً لم يحس بخطر ما ولم يخرج من أي شيء سيكون . وود
 لو يتمدد نوا على الطاولة المنسعة أمامه ويتمدد في حوار واحدة
 من بعد أخرى . . يلتمهن على ذراعه ووجهه على مقربة من
 وجوههن وبده الطفيفة تربت بطنانه عليهن . يتصور أن هذا هو
 أفضل وضع تصدق فيه المرأة رجلاً . وتسربت منه ضحكة إذ
 تخيل أستاذته يتهن .

وماغتته « ابرينا » العصبية دائية : « محمد . . لماذا تصحك
 الآن ؟ » . ووجد نفسه في فورة الشروع في المرح يتورط .
 ويجب بسرعة وتدفق غريب : « لأنني متأكد أن لاشيء هناك

التي يا إيرينا ، وأعجب لذلك . لقد رأيت الأشجار والزهور
والطيور وأنا في طريق المعاناة إلى هنا . كل شيء ربيعي مثلها
كان قبل تسرونيل يا إيرينا وكانت الوجه العشرة تلتفت إليه
باهتمام شديد . تقرب فيسمع أنه رجل كل هؤلاء النساء اللاتي
بلدن بكلماته الآن . وكاد يصيحك متذكراً صورة عائلة
الأنثروبولوجي الأمريكية التي ذهبت إلى مجاهل أفريقيا لدراسة
عادات ولغة إحدى القبائل البدائية . فتزوجت من زعيم القبيلة
وارتضت أن تكون واحدة من بين سائة المائة . ووجد نفسه
يشرح بحماس فكرته التي نشت لنوها في رأسه . « أن النباتات
تحس وتعلم والطيور والحيوانات بالطبع كذلك . وبما أن هذه
الكائنات لم تفقد فطرتها فهي تحس بأي تغير في البيئة من حورها
حتى قبل أن يوصله الإنسان وأجهزته العلمية . يحدث هذا قبل
ثوران البراكين وقديم الزلازل : تكف الطيور عن التغريد
وترحل . وتطوى الكلات على نفسها في الأركان . وتنفذ بعض
الأسماك من الماء متحركة على السطح . » والنباتات ١٩

ولم يكن يعرف ماذا تفعل النباتات في نذر الكواوت . لكنه يدفع
في لحظة الشعور بشفة غريبة تدفعها إلى كيانه هذه الروح التي تمت
تروا إليه . « والنباتات التي لا تستطيع الرحيل فكيف
تهدل أغصانها وتقبل الزهور بسرعة وربما تساقط الأوراق .
يحدث هذا لأن هذه الكائنات البكر جميعاً تستطيع التقاط أسطر
تغير في فيزيائية أو كيميائية الهواء أو الماء أو التربة من حورها . وبما
أن الأشعاع يعبر مستوى الطاقة حيثما يمر كما يقولون فإنه يعبر

فيزيائية الهواء على سبيل المثال وهذا تحسب الزهور والطيور
والنباتات على الأقل . وبما أنني لم أر تغييراً طرأ عليها فإني متأكد
أن لا خطر هناك . ولم يكن متأكداً تماماً مما قاله . . .

❦ ❦

لم يدعني أن تكون « لائسا » جميلة السهولة ومهله الجبال
هي التي هفت ، صحيح . صحيح . صحيح يا عمدة ، فهي التي
سألت مرة عما إذا كان لا يخاف من التعاصيح التي تخرج من الليل
وتشعشع في الشوارع ، وعن الشعاع الذي يسقط من قمة هرم
خوفوا إلى داخل إحدى حجراته وشفق السرطان والكسوف وبعد
السياب . لكنه اندفع إذ بدا على وجهه « يلينا بتروفنا » اهتمام
شديد وقد راحت تسأل البذات عما إذا كن لاحظن هذه الأشياء
قبل أن يأتين ، وكانت المفاجأة نعيم بالذاكرة لكن « يلينا
بتروفنا » نفسها هي التي وثبتت من مكانها وأسرعت إلى
النافذة . فتحت النافذة كلها بسرعة ، المصاريع الأربعة
بتعاقب ، ومالت على العنوسة تضعف فانحست القاسمهن
وأنفاسهن . هن من فرط الرغبة في كامل الأصغاء وهو من شدة
التوجس في أن يتحول طوق النجاة المتخيل الذي صنعته لهن من
أجلهن إلى حجر يغمض بهذه القلوب إلى قراءة اليأس . ماذا
لو لم يعود الآن طائر ؟ أو ذلك لأي سبب من الأسباب شجرة ؟
ماذا يكون قد صنع بين ؟ وقد كانت « يلينا بتروفنا » تقبل تسمية
بها تماماً في رتبة الأصغاء . تبدو كطفلة كبيرة في هذا

الأنحاء والانشاء وإمالة رأسها تصعى وتوسو إلى أسفل وعبر
 الشارع الخاسى حيث يصعد في الرصيف المضائل صور مقبرة
 ضحايا الحرب العالمية الأخيرة . . صور طوي اللون ضارب إلى
 حمرة مطفأة بظاهرة سياج من أشجار الخور الساقة . كانت تظهر
 من بين جذوعها السوداء في الشتاء أرض المقبرة يغطيها الثلج
 وتنأ فيها بلاطيات المقابر مغطاة بالثلج هي الأخرى ومحاطة
 بأميجة من شجيرات عشية . يسما أشجار البسولا والشوب
 والكستناء والقيقب العارية جميعا تتوزع وفيه في كل جانب
 المقبرة . كان لا يجب الإطلال عليها . فلم يرها منذ الشتاء .
 ولا بد أن كل شيء فيها قد أخضر الآن حيث تنظر . يلبس
 بروفنا . وتصعى . وتتظر . والبنات يتظرون . وهو أيضاً .
 بقلب واجف . يتظر .



بانت شقيقة عصافير بعيدة . لم أن واضحاً أوضح ما يكون
 تغريد بلبل . وصدح في نفس الوقت طائر ما . وهذلت حمامة .
 وجن جنون الغرقة .



كم قيلة على الحلة تلفاها . وعلى رأسه . وعلى الكتفين إذ بدا
 مستحيلاً أن ينهض من جلسته وهن يتكاثرون فرحات عليه . وكم
 لقباً نال ١٢ . دراجوى موحاميد . . زالاتوى موحاميد . .

« موى موحاميد » . يا العالى محمد . يا محمد الذهب . يا محمدى
أنا . العصفير تشفق . والبلابل . وهديل الحمام أيضا .
وحتى العقبان . كلها مازالت تغنى يا محمد . ومحمد الذى رشقت
سهام كل هذا الفرح ، راح يتزف تأثراً فى أعقاب انطلاقهن من
الغرفة وذهاب . يلينا تروقنا . معهن ، كان موقناً أنهن سيسترن
الآن فى كل أرجاء المعهد ويعلمن أن الطيور مازالت فى « كيف »
تغرد ، ولا إشعاع يخيف . . لاسرطان مبكر ولا عظم ولا جنون
ولا صغار يشيخون فى عمر الزهور . أى حكاية هذه يا محمد ؟

ونفض من مكانه فى الغرفة الحالية تقوده انقباضة أسى رهيف إلى
براج النافذة المفتوحة . . هذا هو السور الطوى المائل إلى الحمرة
وهاهى ذى الأشجار تكاثفت حضرتها الربيعية حتى غطت تماماً
ما تحتها فكان هذه حديقة وليست مقبرة . وأصغى إلى شقيقة
العصفير وتغريد الطيور التى يعرف والى يحفل . . ثم مد البصر
بعيداً بطرف يدرى « كيف » . . أشجار أشجار أشجار .
والبيوت بالكاد تبرز بضاء من بين حضرة الأشجار . ترجع فى
داخله قول الرسام الأمريكى « روسكوبل كنت » بعد ما رأى
كيف : « يا إلهى لقد رأيت حدائق كثيرة فى المدن . لكن هذه
أول مرة أرى فيها مدينة فى حديقة » . وشعر بخوف ذاهل أن
يكون الخوف من هذا الشعاع الخفى حقياً . أن تكون كل هذه
الحديقة فى طور الاحتضار البطيء الآن أو فى انتظار الموت يوم
١١ مايو . تتدهور الأمور ويحدث الانفجار الذرى ويستهي كل
شئ . . شوارع الشجر . أزقة الشجر . مشاور الشجر .

والشرفات المعطاة بأوراق علب البيوت ، صلاف الخصرة والتفاح
والكريز على جانبي « الدينير » ، و « لافرا » الذهبية التي
تبرق في زهر الاخضرار ، الحمام الذي يغطي عتقات خديفة
ميدان « المولاسقا » ، وتوافر المياه لتضاء بالالوان التي ترفص
رقص الضوء مع الموسيقى في ميدان « الاكثير مكاريا » ،
الأمهات الشابات اللاتي يدفعن عربات صغارهن المتظامين في
الطلال ، والعواجز الذين يلعبون الشطرنج على مناصد حذوق
الاشجار في حدائق « شامتكا » ، العشاق المتخاصمون في
حروب المليك العطرة والأطفال . . . أه ، هؤلاء الأطفال ، الذين
أبصرهم مواراً يشاركون عروحي في نمشي العنايات الأمنة
والخداق ، يتوقف الواحد منهم فجأة إذ تلفت بظله ورده
جيلة ، فينادي أصحابه ويتوقف اللعب ، يلتمسون جميعاً حول
الوردة ويحيلون عليها ملكي أبنهم الصغيرة خفف ظهورهم .
يسمون رحيق الوردة ، دون أن يلمسوها ، فقط ؛ يعندلون
ويلوحسون الوردة هاتفين : « مالا ديس » ، وهي تعني
« أحب » ، وبتغة الأفتال . . . أه ، هؤلاء الأطفال تعني
« شطرة » ، بالوردة .

ختان بروسلې



لم يظهر متواثماً في ركضه بين البيوت مع مطلع الصبح ككل
الأيام الماضية . لم تسمع صيحته المضحكة « هاى هو » ينادى
بها كل من يلقاه مع قفزة (كاراتيه) في افواه على سبيل التحية .
لم يهوهو لكلب نائم في بئر سلم يوقظه . ولم ينونوا لتحديد نقطة عن
طريقه السريع . ولم يسبقه ديبه و غناؤه وصخبته على درج البيوت
التي يدخلها دون حاجة لإذن . لكنه راح يتبدى في نفس الأماكن
عبر النور الرمادى المزرق للمصباح الباكر . ساكناً على غير العادة
وخائفاً من شيء ما لم يكن معروفاً بعد . ثم . . هذا الرى
الغريب عنه : جلاب من الدبلان الأبيض وحذاء (بلاستونيل)
تأشف مربوط بدويارة أين أقدامه السريعة الحافية المتربة ،
والشورت الأزرق المبقع وفانلة الألعاب الصغراء القديمة التي

ابيضت ؟ ملايس عمله الصباحي السريع وهو يطن كالنحلة بين البيوت . . يظهر ويختفي ويظهر ويختفي ولا يكف عن الركض اثناء ذلك . . من البيوت الى (طابونه) الحزر الى البيوت الى طابونة الحزر من جديد ومن جديد البيوت ثم دكاكين البقالة فالبيوت فعربة القول المدعى - البيوت - سوق الحصار القريب - البيوت - محل الطعمرج - البيوت - مشاوير عديدة حافلة بلسها وهو يلعب لعب (الكاراتيه) هذا الذي القى به اسم لاعة « بروسيل » وكعاد ان ينسى الناس اسمه الحقيقي فصار « اسماعيل بروسيل » . او « بروسيل » فقط . او « المخفي بروسيل » - ضحكاته وصفة له اذ عادهما يظهر فجأة في مطابخ ووردهات وصالات البيوت وشقق العمارتين الكبيرتين في الحى .

يعلى عن وجوده عنه الطمول في شىء ما من (ابلهكات) هذه الأماكن أو صوته يندى سيده البيت « عايزه حاجة بسرعة اصل مستعجل » هكذا بساطة مضحكة تنقلب غالباً فيها العين الى حذاء والزائى الى صين والجيم الى كاف وهو على العموم ما زال يطلق حرف الرأه لام « حايه حاكه يشله اصل مستعجل » . ويضحكن عندما تفع انظارهن عليه اذ ان ملاحظه لطيفه رغم الغيرة . . تقول احدهن ضاحكة « انت جيت يا عيل » فبرء . « بس ما نقولس يا عيل احسن والله اسمعل معاكى وما عتس اكلمك . . ونحاجا به اخبرى او تبندو كمن قوجئت به تقول : « يوه » بسم الله الرحمن الرحيم « انت طلعت لنا متج ياو له » . فيكون رده : « ح السلام يا أختى يحنى منى حالته وانلا منى

حالفه . . . وهو يحط حروفه مطأ مضحكاً ثم يرسله في مشاوير
الصبح يلبيها ويضعن في جيوبه القروش وبين يديه شيئاً مما
أشترته : رغيفين ، قرص طعميه ، يفضه ، حبة طماطم . ينزع
لحظة ثم يقل ويطير . . يحط بين يدي أمه وأبيه الضمير وأخواته
البنات الأربع ، في الغرفة المجاورة للسلم يدروم منزل ، حين
وصل ، ، ويعاود الطيران ، وكأنه لم يخلق لهذا اللحظة ، لهذا
سرعان ما اكتشفت السيدات في هذا الصباح مكنونة ، ثم
اكتشف زينة المضحك والبله كان مضحكاً لأنهن لم يتصورن
« يرسل » في شكل آخر وانتشر النبا . بعد القصص ، بين
الشرقات والنوافذ الصباحية المفتوحة والمتقايلة :

« الواد هايطاهر النهارفة يا عيني » ، « الحراج صلى عاملها صدقه
عن ولاد ولاته » ، « بعدما المزين يطاهر عيال صلى هاينزل
يطاهره على حساب الحراج » ، « فوق البيعة يا عيني » ،
ويا عيني ، بضحك ، وتأثر ، ونوبة صعود لشفقة راحت نبال
منها على « بروملى » العطايا : دجاجة مجمدة لتطبخها له أمه حتى
يتقوى بعد الحتان . وعلة بسكوت راح يتأمل رسومها بالبساط
متردد . وكيس فاكهة . وشاش وقطن ومركركروم من
اجزائحات البيوت . ونقود ورقية حثت بها السيدات جيب
جلبابه الصغير الذى ركبته الحياطة معوجاً . وكان « بروملى » من
كل هذا ونما سيمعذك له بعد ساعة أو ساعتين فى استغراب ،
ودهشة ، وترقب وجل . . يمضى دون أن يتراكم متواتباً تواب
« بروملى » ، دون أن يتصايح مثله ، ودون أن يظفر .



مد « سعد الاسكافى » اللمة بالسلك من دكانه وأدلاها من
نافذة البهروم القريبة من الأرض ووضع الفشة فأضامت ، لكنه
لم يتمكن من رؤية ضوئها إذ قاجأته المرأة « الناشفة » . كما جاء فى
لازمة سياه لها فيما بعد . أم « بروملى » بالوقوف فى وجهه مانعة
إياه من الدخول للمعاونة فى الاماك بالوليد عند الحتان .
وضعت ذراعها الجائفتين فى حلق الباب ووقفت بطرفها الناحل
الياس تمنع برجاه وحسم أى أحد من الدخول غير « ونه »
المزبن ، وأخرجت البشات إلى الشارع . وقالت إن الوليد

سيمسكه أبوه وتقوم هي بالمشاورة مع الاسطى «وته» . ولم يشها
 ابداً زعيق سعد الاسكافى وهو يضرب كفاً بكف لأمأ حوله الناس
 متعجباً جنون المرأة ومردداً : « خيراً تعمل شراً تلقى » . واتفق
 الذين التوا على أثر زعيقه معه فى رأى حول جنون المرأة . فأبى
 الولد ضريير ومقعد منذ سنوات كما يعرف الجميع وربما بطلت
 الولد منه . وهو - سعد الاسكافى - لم يكن يريد إلا المساعدة
 لوجه الله . وأوشك أن يتزعج الفيشه وسحب اللبة والسلك
 لولا أن أثناء الناس واتفقوا معه أن « يعمل الخير ويرميه فى
 البحر » وأن « الجزاء عند الله » . لكن هذا لم يمنع الجمهرة
 الصغيرة من التبدد . بل راحت ترداد مكتبة فضولين
 جدداً . أصحاب الدكاكين المجاورة ونساء البدرومات الأخرى
 القرية وبعض الأطفال . . وقفوا فى ترقب ينتظرون ما يسفر عنه
 حثان ولد سيمسك به أب ضريير مريض . وتحضره - وحدها - أم
 مجنونة .



فى النور بدت حيطان حجرة المدوروم القرية من السلم
 كثية . تسودها آثار أباد كانت تسالد عليها وتعلمها فى العتمة
 وكانت هناك يقع من العفن الداكن تنتشر بطول الحيطان
 وعرضها . وفى الركن تكومت أشياء بدا أنها من لوازم جهاز
 البنات . أشارت إليها المرأة قائلة للمزين : « البركة فى اسماعيل
 يا عم وته » . وشعر « وته » المزين بالقباض . بل بوجل بداخل

نفسه بنفسه كما لم يحدث له خلال ثلاثين سنة حتى فيها آلاف من البشر . ومع ذلك استمر في إعطاء أوامر بالتجهيز للمختار .
امر المرأة بأن تعطي (وابور الحار) نفساً بشدة من نيرانه حتى يغلي الماء فوقه أسرع لتطهير العدة قبل وبعد استخدامها ، وتأكد من مثانة الكرسي القوي سيجلس عليه الرجل الضربير والولد .

وأحد يداعب الولد ويطمشه ، وكان برتل بلا انقطاع وغير حديثه سورة الفلق . وكانت المرأة تتحرك بلا انقطاع في الغرفة الضيقة دون أن يبدو هناك أي داعٍ حقيقي لحركتها ، ودون أن يكون هناك ما تفعله . وكان الرجل الضربير واقفاً يضم الولد إلى جنبه ماسحاً يده الضربيرة على رأسه ومردداً : « ما تحافش يا اسماعيل في حاجه بسيطة خالص ، سيفه خالص بابا » . وكان اسماعيل مبهوتا ومناجيا حتى بدت عيناه السوداء أن أكثر لمعانا ودكنة . ثم ركن المزين المقعد جيدا إلى الجدار وراح يجلس الرجل الضربير معذلاً من جلسته لتبلام مع عيني الولد في حجره . وارتفع الولد ثم أحاطت به الأذرع الضربيرة فتفتحه مهيأة في وضع المسك جيدا كما شكلها المزين ، وبدأ الولد يصرخ . صراجا غطى على زعقة المزين إذ رفع خنثى الولد يكتشفه : « أبه ده ؟ » . وهرولت الأم سائلة بلا صوت . مبهوته كمن تلقى لها ظل يخفيه طويلاً . وأجابها المزين : « الواد دا مش عيل يا ام اسماعيل » . وعاجلك المرأة تسكه بتوسل رافعة ينهاها في مواجهة له : « حلفتك بالله ما تحب مبره » . بقطعوا رجله بأعم رته وما بد جلهوش لا هنا ولا هنا . « لكن دا مش صغير

يا أم اسماعيلين . . والنبي ما هو داري بنفسه يا أبا . والنبي ما هو
داري بنفسه . أحب على رجلك ما تحب سيرة لحد يا حاج وبه . .
وهوت المرأة على قلبي المزين تقيها ، فتراجع متعتاً : « استغفر الله
العظيم . استغفر لي العظيم » . وكان صراخ « بروسل » يتصاعد
مطلقاً بسبابه المضحك وكان يشرق بصرخاته ، وبين الصرخات يبين
طنين وابور الجاز ، وضحك لمة الناس في الخارج .



دم الغزال



من الوادى العطشان إلى الوادى الريان ومن الوادى الريان يدفعها إلى الوادى العطشان وتستمر المطارة حتى تعب فتوقف لاهة خائفة ترتعش وتتوقف بقربها . . . « اللاندروفر » ويهبط زميله السائق ليأتى بها من قريبها طيعة إلى العربية ، دون أن يطلق عليها النار ، دون أن يشعر بتلوته مزيداً إذ تلوث بداء بالدم وهو يوازن ما بين طاعة الأمر ومخالفة ضميره ، مخالفة حقيقية دوره . تلك كانت خطة إبراهيم لصيد الغزالة المطلوبة ، يفكر بها وهو يصعد صاعراً بسلاحه إلى مقدمة العربية . ثم أمر إبراهيم زميله أن ينحرف في انطلاقه حتى يبلغ طرف العطشان ومن هناك يكون الدوران حول الريان إلى حيث تكثر الغزلان في المحمية . « المحمية » أرقدها إبراهيم في داخله ممزوجة بمرارة السخرية من

فربط فحاجة المفارقة وانصاحها : حمة المحمية يتهونها ، وماذا
يكون الأمر غير ذلك ؟ أليس واحداً من جنود السرية المنوط بها
حراسة هذه المنطقة المعلن عنها كمحمية طبيعية ؟ أليس دورهم
المحدد أن يمنعوا أي بد تحاول الإمتداد إلى هذه البقعة لصيد واحد
من حيواناتها المهددة بالانقراض ، وعلى وجه التحديد :
الغزلان ؟ الغزلان التي هو ذاهب لصيد واحد منها بالأمر المباشر
من قائده ! ولأجل خاطر الشواء المشتهى على مائدة قائد القائد !
وزفر إبراهيم زفرة كان مقدراً لها أن تطول لكنه شفق سريعاً مع
هذا الشعور المفاجيء بالهبوط . . كانت « اللاندروفر » قد اجتازت
حافة الوادي العطشان القاحلة المرتفعة وراحت تنبط في منخفض
الوادي الريان عند سفوح التلال والجبال الصغيرة . وأمر إبراهيم زميله
أن يعطى . أن ينخفض من صوت المحرك ، ليستل في شبه صمت
إلى قلب الريان .



السبل يداهم الوادي من النقطة نفسها التي تسلمت عبرها
« اللاندروفر » . . من بين ضفتي تلال الوردوار الرمادية
والبركانيات الصخرية الكريمة الناصعة . تبوح بسيرة السبل
هذه الحجارة الوردية والحصى الذي يقرش الدرب المشب
ويتشر في الوادي . ذكرى الاندفاع الكاسح لمياه الأمطار المنهرة
على جبال الجمرات العالية في الجنوب ، تأن دافعة أمثلها
بشجيرات الشوك المقنعة من الرمال ، وبأشجار الصبار ،

والعشب الصحراوي .. تأن مدحجة بقات الصخور الوردية
القاطعة التي تساقطت من قمم الجبال وحوافها المتخلخلة . نهر
محتاج يندفع ليدخل الوادي فتهرب من نذره الفئران حاملة
صفارها إلى قمم الجبال واللال المحيطة ، وتهجر الطيور
أعشاشها ، وتفر الأرانب الجبلية والشعالب والذئاب ، وتطلق
الغزلان أمانه سيقانها للريح . صورة مماثلة لصورة الأثر الذي
أحدثه اندفاع « اللاندروفر » في بطن الوادي . لكن السيل يفعل
ذلك ولا يلبث حتى يشف عن صورة أخرى .. يتلاشى ..

تشربه السفوح وترتوي فتخرج من بين جنباتها الحضرة . يصير
الوادي « ريان » إذا ما قورن بالوادي المرتفع المجاور له والذي
يظل « عطشان » لاتصعد إليه ، وتحافيه ، المياه . تدب الحياة في
اعطاف الريان بعد الفزع .. تأن الأرانب والغزلان التي تغتذى
على العشب ، ثم تأن الشعالب والذئاب التي تغتذى على الأرانب
والغزلان . وفي أعقابها تأن الضباع التي تتبد الأركان في انتظار
نقايات الولايم البرية .. تحط أسراب الطيور المهاجرة قليلاً
للراحة ، ويعشش حمام القطافي تحاوي الصخور . وفي لحظات
الشبح الحيواني ، يبدو الريان واحة تسكنها سلسلة من الكائنات
الآليفة المتوادة . تتجمع يقرب بعضها البعض ، ترعى أو تنمط
أو تغفو في سكونة . الصورة التي وحزت قلب إبراهيم لحظة
اخترق « اللاندروفر » قلب الوادي . كان كل شيء هادئاً
ووديعاً ومتناغماً بسحر لوحة حية . ثم دب الروح في هدوء هذا
السحر مع ظهور السيارة . وراح الأربعاء يطيش « اللاندروفر »

تضاعف من سرعتها لتطارده غزالة شاردة . أريكت المباحة
الغزالة فارتكبت أول أخطائها . . جنحت للخروج من الريان
بدلاً من أن تلوذ به . ضيقت أسنح فرصها للدخول في خور
صخرى تقف أمامه اللاندروفر كقطعة عاجزة من حديد .

وأسلمت مصيرها لجناء العطشان . وفي دروب العطشان المبهدة
بلاعوائق من نبت أو فئات صخور ، وفي سفوح الكتبان
المتسرحة لم يعد للغزالة إلا أن تجري أمام وحش الحديد . لكنها لم
تكن تجري . لقد كانت تطير . بدت لإبراهيم في ركضها الغريب
أمامه وكأنها صورة حلمية . أو عرضاً بظناً لفيلم بالغ النعومة
عن غزالة تسبح في الهواء القريب من سطح زمال حريرية
متماوجة . تتأرجح بكراً لم تطأه من قبل عجالات أو قدم . لكن
أطراف قوائم الغزالة كانت تطوء الآن . بل تغمزه غمزا خافقاً
برشاقة أطراف أربع قوائم غزلانية ، تنضام في نقطة واحدة
ينفوس أعلاها جسم الغزالة . قوساً ساحر المرونة ، مشدوداً ،
كأنما يصوب نحو السماء . غمزة ، ويطلق القوس سهمه الغير
مرئي . بل ينطلق القوس نفسه . . يفتح جسم الغزالة طائراً في
الهواء ، إلى الأمام ، إلى الأمام ، إلى الأمام . إلى الأمام في
انفراج الوادي الرملى وغير المنعطفات بين التلال . و
« اللاندروفر » في أعقاب الغزالة تجمع وتجار . يضاعف السائق
من سرعتها بشكل تلقائى في البداية . لكن المطاردة توفّر شيئاً
ما في دم إبراهيم . يحس بالسخونة تنضاعد في عروقه ، سخونة
مغلول ، ويحس شيئاً وكان الغزالة تلطمة كلما انفتح جسمها

طائراً في الأمام . تلطمه بطرق قائمتيها المطوحتين إلى الخلف في انطلاقها . وتتعاقب على نفسه المهانة مناظر لحظة سماعة للأمر ، ولحظة ترده في مراجعته كما ينبغي ، ولحظة الصدوع والتكيس . وتصير المطاردة جنوناً يصعد في داخل إبراهيم . وإبراهيم ينتصب لهذا الجنون واقفاً في مقدمة « اللاندروف » ، يصرخ في السائق بالأسراع والانعطاف والمناورة . وتضيق المسافة بين الغزالة وإبراهيم . تضيق حتى تصفع الرمال التي تغلفها أقدام الغزالة وجهه . تضرب جفوة الطارقة وتدخل في خياشيمه وقمه وتحس بجرحها بين أسنانه وهو يصرخ في السائق . ثم يصرخ من شدة الضيق . ويقرر أن يطلق عليها طلقة واحدة . طلقة لا تقتلها لكن تصيب ساقاً من سيقانها بالارتباك لتتوقف . ليصك بها وينظر في عينيها وهي مغلوبة وأسيرة . كم كان يشتغل هذه النظرة . وكم كان دافعه إليها غامضاً وغالباً . . ولا يقاوم ، وراحت يده تشنجان وهو يتصب « السييا » الثلاثة على غطاء المحرك ، وعلى قمة « السييا » يثبت الرشاش .



طلقة ، وطاشت . طلقة ، أصابت ، لكن لم يبد لها من أثر . . مجرد اهتزازة عابرة ، خفيفة ، في مسار الركض الطليق السابح ، ثم عاد التجانس للمسار . حتى الدم لم ينشق من موضع الإصابة . واشتعلت الحرب . طلقة أخرى تصيب . دفعة صغيرة من الطلقات . زخات زخات زخات . والهدف

بقعة صغيرة واحدة مساحتها ستبمترات قليلة من ساق الغزالة
 اليمنى التى يطلق عليها ابراهيم . على الركبة يطلق فى جنون وهو
 يصرخ فى السائق أن يطير . . . يجرد . . . يندفع . . . يتعطف . .
 ويطلق . . . يطلق . . . يطلق . . . نفر التلال بأشكالها العاصفة
 التى نحتتها رياح السنين . تغطى الكثبان . وتضئ بسرعة
 غلوجات بحر الرمال . ثم يفصل هذا الجزء من ساق الغزالة
 فيصرخ ابراهيم . صرخة الغريق المغلول الذى لا تحت له قشة .
 وما لبث حتى غرقت هذه القشة . ارتبك ركض الغزالة برهة ثم
 استعادت نفسها . صارت الفائمة الخلفية الوحيدة تعمل عمل
 الاثنتين . لا فارق يكاد يذكر إلا أن الركض تحول قليلاً مساره .
 صار قوساً . وفى انحناء القوس كانت « اللاندروفر » تميل . إلى
 حد الخطر الذى سلم فيه ابراهيم بفكرة اصابة الغزالة ،
 سريعاً ، فى مقتل . وفى اللحظة القاطعة . قطعت الغزالة قوس
 ركضها بالعطافة حادة . ودخلت فى فوهة أقرب كهف صادقها .



بدا لابراهيم ألا يتعجل بعد أن توقفت « اللاندروفر » ،
 وتوقف هذا التراكض المحموم فى داخله . وتوقفت الغزالة فى
 فوهة الكهف . بدا له أنها حُشرت فى الفوهة لا تستطيع التقدم
 ولا تستطيع الرجوع . وسيهبط ويخذيها مع زميله السائق من
 الخلف . من الساق الوحيدة الناقية . وسينظر فى عينيها ملياً قبل
 رفعها إلى ظهر العربة . ونزل ابراهيم مع السائق . مشياً

خطوات في الرمل المعبق وتوالت بين صخور السطح . ثم توقف
إبراهيم ينظر إلى هذا الجزء المرتعش النافس من الساق المتوردة عند
الركبة . تعجب كيف أنه لم يتزف وكان الطلقات الملتهبة حيثما
كانت تقطع نكوى . أي حجم من الألم . ومد يده فأحس بأول
النعومة في الوبر الغزلاقي بأعلى الساق السليمة ، وأحس ببلل
العرق . وأوغل ليُسك لكنه قفز مرعوباً إلى الخلف وقفز زميله
السائق . سمعاً صوتاً لاشك فيه لسعار ذئاب تخفى داخل
الكهف الذي لادت به الغزالة . وكان واضحاً أنها لم تحس في
الضووة . ولا بد أنها رأت منذ اللحظة الأولى وميض العيون
الذئبية في العنمة . وقد تكون نيت يباغض الأنياب وهي
تكشر . كان ثمة إمكانية لديها للتراجع . لكنها لم تتراجع خارجة
بظهرها من الكهف .

واستعر السعار فيها كان إبراهيم والسائق واقفين على مبعدة
والسلاح متأهب للإطلاق إن برزت من الكهف الذئاب . لكن
الذئاب لم تبرز . فقط . . كان هذا الجزء الظاهر من جسد
الغزالة في قووة الكهف ينشد وينتفض . يسكن مرتعشاً ثم
ينتفض ، تبعاً لتأرجع السعار أو خفوته . ثم راح الدم يخرج من
أرضية الكهف . من بين أقدام الغزالة الثلاث الباقية ، خالض
الحمرة ، وينحدر في تيار سريع دافق على حافة فوهة الكهف
الصخرية .

الفهرس

٥	١ - القشرا
١٧	٢ - أمام بوابات القمح
٢٩	٣ - حيث الناس والبيوت
٣٩	٤ - المغالسة
٤٧	٥ - ما بال هذا الأتني
٥٣	٦ - هذه المزرعة
٦١	٧ - البلاد البعيدة
٧٩	٨ - الأسوار
٨٩	٩ - الحرب
١٠٥	١٠ - الموت يضحك
١١٧	١١ - سائقة ترولى
١٢٣	١٢ - حل من آخر لحظة للورد
١٣٧	١٣ - ختان بروسلي
١٤٧	١٤ - دم الغزال

الموت يضحك



ما أحب الإشارة إليه، لو
كان ذلك وارداً، هو أن هذه
النوعية من القصص ليست
مرحلة من مراحل تطوري
في الكتابة باتجاه القصة
القصيرة جداً أو القصة
القصيدة أو الأفيصوحة
الموجزة التي اشتهرت بها
واشتهرت بـ ، إلى حد
ما ، ولكن هذه القصص
الأميل إلى الطول هي طبقة
من طبقات الصوت
القصصي الذي لا ينبغي
أن يكون أحادي التبرة، في
اعتقادي، بل ينبغي أن
يكون قادراً على الانتقال
بين النغمات إن تطلب
الأمر ذلك . المؤلف

